MOOMA MAX

الإعجاز البياني في سورة

النبأ العظيم

محمد مبارك المزيودي

2011

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن و من سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبد الله ورسوله أرسله الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

كنت أظن أنني سأكتفي بتفسير وبيان سورتي الفاتحة والعلق، إلا أنني وجدت النفس تنساق إلى الاستزادة من ذلك المعين الذي لا ينضب، فشرعتُ في الإقبال على تفسير جزء (**عمّ**) ابتداءً بأول سورةٍ فيه، وهي سورة (**النبأ**).

ونظراً إلى ماكنت أجده في تدبُّر الآيات، فإن الضعف البشري كان يحدّثني بالكفّ عن تفسير المزيد من السور، إلا أن قدر الرحمن كان يُغْريني بالاستزادة، طمعاً في أن أكون من أهل القرآن الذين هم أهل الله في الدنيا والآخرة. وأكثر ما كان يحثّني على الاستمرار أنني ظَنَنْتُ أن ما تخطه يميني فيه من البيان ما من شأنه أن يجلّي ما في السورة من جلال البيان، وأن يجعل قارئ تلك السور أكثر قرباً إلى فهم الآيات والمعاني.

وثم أسأل الله العليم الحكيم أن يحفظني من أن أقول في كتابه ما ليس لي به علم. وأن يغفر لي جهلي وخطأي ونسياني وتقصيري، وكل ذلك عندي.

والصلاة والسلام على مسك الختام رحمة الله للأنام محمد عبد الله ورسوله وعلى آله الطيبين الأطهار

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ
﴿٥﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا
﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا
سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا
﴿١٦﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ
فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا
﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ
وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ
أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا
﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً
حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ
ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

النَّبأ العَظِيم

أولاً: الإطار العام.

أسماها ربُّ العالمين (**النبأ**) ولو سُئِل عن سبب هذه التسمية لقيل: إنه لورود كلمة (**النبأ**) في مُفْتتح السورة. إلا أنني أختار أن السورة جميعاً تنضوي تحت هذا السم. وقد بناها الرحمن الذي علم البيان بناء متعاضداً، يشد بعضه بعضاً، اعتمد فيه أرقى نظام وأكمل كلام، وفيما يلي بيان للإطار العام:

1- مفتاح البيان

افتتح المولى عز وجلّ السورة بذكر السبب الذي استدعى نزولها من السماء، وهو تساؤل المشركين عما جاء به محمد ﷺ ، وهذه الآيات هي:

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ النبأ: ١ ــ ٥

2- براهين ذلك النبأ

بعد أن ذكر جل شأنه أنهم سيعلمون ذكّرهم بسبيلٍ من سُبُل العلم، وهو النظر فيما يجدونه حولهم من البراهين الدالّة عليه سبحانه، وهذه الآيات هي

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ النبأ: ٦ ــ ١٦

3- وماذا بعد ؟

إن الذي خلقكم وخلق كل تلك الموجودات قضى بموتكم وبفناء هذه الموجودات، إيذاناً بقيام يوم الفصل، لأنه يفصل بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون في الحياة الدنيا، وقد ذُكِرَ هذا اليوم في نسقين:

الأول: مشاهد قيام يوم الفصل

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ النبأ: ١٧ ــ ٢٠

الثاني: مآل العباد

يبعث الله الخلق ليوم الفصل، فيفصل بينهم، فريق في النار، وفريق في الجنة:

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ النبأ: ٢١ ــ ٣٠

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ
فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ
لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ النبأ: ٣١ ــ ٣٨

4- الخاتمة (عطف على بدء)

ختم عز وجلّ السورة بالإشارة إلى ما ابْتُدئت به، وهو تساؤلهم عن ذلك النبأ الذي جاء به محمد ﷺ ، فقال :

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ النبأ: ٣٩ ــ ٤٠

ثانياً: دلالة الاسم

الاسم هو (**النبأ**) والنبأ في اللغة هو الخبر، إلا أنهما يفترقان في أن النبأ لا يكون إلا خبراً غيبياً يقيناً، ولهذا وُصِفَ الذين يأتون بخبر السماء بالأنبياء، لأنهم يخبرون الناس بما غاب عنهم خبراً لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه .

فما هو النبأ الذي جاءت به هذه السورة .

ذكر أسلافنا الكرام ثلاثة أقوال: منهم من قال هو القرآن، ومنهم من قال هو خبر البعث، ومنهم من قال هو أمر النبي ﷺ .

إن أمر محمدٍ ﷺ بدون الرسالة لن يكون مدعاة للتساؤل، أي أن التساؤل عنه لم يكن لشخصه المجرد، بل عنه وهو متلبسّ بالبعثة، فكان ذلك مؤشراً على أن مضمون دعوته هو موضع التساؤل .

وأما القول بأن البعث هو موضع التساؤل، فلا يستوعب ما أزعج كفّار قريش .ولذلك فالقول الأجدر هو أن المراد بالنبأ هو تلك المضامين التي تنزّل بها القرآن المكِّي، ومدارها الإيمان بالله عز وجل، وأنه هو الذي خلق الخلق، وقضى بأن يبعثهم من بعد موتهم ليحاسبهم على ما كان منهم في الحياة الدنيا.

ثالثاً: التفسير والبيان

1- مفتاح البيان

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ النبأ: ١ ــ ٥

كان مدار الدعوة في الفترة المكية الإيمان بأنه لا إله إلا الله، وإن تلك الأصنام ماهي إلا إفك وضلال. فكان من لوازم هذه الدعوة الإيمان بأن الله هو من أخرجهم للوجود، وأنه من بعد موتهم، فيفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون . وهذه الدعوة لم تَلْق في مبدأ أمرها إقراراً من أهل مكة، فكانوا يتساءلون عنها قال تعالى:

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ النبأ: 1

أي: عن أي شيء يتساءلون. أصل الفعل : سأل، فزيد ناءً وألفاً، فأصبح تساءل، والقاعدة اللغوية تقول: الزيادة في المبني تستدعي الزيادة في المعنى، فما الذي أفادته هذه الزيادة ؟

أفادت المشاركة في الفعل، فلم يكن السائل واحداً، بل كانوا جملة من الناس، وهم جمهور أهل مكة. وفي شيوع هذا التساؤل إشارة إلى عِظم المسئول عنه . كيف لا وهو دعوة محمد ﷺ الناس إلى عباده الله الواحد الأحد، ونبذ ما عداه من تلك الأوثان التي نصّبوها آلهةً من دون الله ؟

﴿ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ النبأ: 2

أي: يتساءلون عن النبأ العظيم . وهو جواب السؤال في الآية الأولى وفي ذلك تبرز لنا القيم التالية:

* ابتداء السورة بالسؤال نَسَق بلاغي، الغاية منه لفت الانتباه لأنّ النَّفْس البشرية مجبولة على حبِّ اكتشاف المجهول. ومع السؤال يستنفر الإنسان طاقته الإدراكية، لاستقبال ما يأتيها من خبر ذلك المجهول

* **يسأل الله تعالى:** عن أي شيء يتساءلون ؟ ولكنه سبحانه لا يسأل سؤال من لا يعلم ، فهو محيط بكل شيء علما. ولذلك كان الجواب منه هو سبحانه زعلى الوجه الذي أراد، وهو ما تعرضه السُّورة بأكملها .

* **النبأ هو الخبر**، إلا أن الخبر يحتمل الصدق والكذب، والنبأ لا يكون إلاّ خبر صدق، ولذلك وُصف الذين يخبرون عن رب العالمين بأنهم أنبياء، جمع نبيّ. ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء، جاء مُخْبراً عن رب العالمين بتلك المضامين التي اشتمل عليها القرآن المكي، ولذلك كان القول بأن (**النبأ**) هو القرآن أصحّ الأقوال، يؤيده قوله تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ص: ٦٧ - ٦٨

أراد بذلك القرآن وما اشتمل عليه من أنباء الغيب

﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾النبأ 3

الضمير (**هم**) يعود على مشركي مكة، والنبأ الذي هم فيه مختلفون هو أن الله واحد لا شريك له، وأنه يبعثهم من بعد موتهم للحساب، والاختلاف لا يعني التكذيب المطلق، إنما يعني التردّد الرفض والقبول، وهو مالا يسري على المكذبين ولا على المؤمنين، لأن المكذب لا يتوجه إلى التساؤل، لاستقراره على الإنكار، والمؤمن أيضاً لا يَتَوَجَّه إلى التساؤل، لأنه سلّم وآمن بذلك النبأ أي أن المراد باختلافهم في النبأ العظيم ما كانوا عليه من اعتقاد في الله تعالى، إذ لم ينظروا إليه من منظور واحد، بل من مناظير

*** فهم من جهة يؤمنون بالله، قال الله تعالى في شأنهم:**

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾العنكبوت: ٦١

قال النسفي في تفسير ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف يُصْرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كله.

* ومن جهة أخرى ادّعوا أنهم لا يعبدون الأصنام لذاتها، إنما يعبدونها لتقرّبهم إلى الله، قال تعالى:

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾الزمر:

* ومن جهة ثالثة كان بعضهم يعتقد تعدّد الآلهة، فيجعل تلك الأصنام آلهة مع الله، قال تعالى:

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ ﴾ص: ٤ ــ ٥

فجاء محمد ﷺ بالنبأ العظيم وهو وحدانية الله وربوبيته للعباد، وهو الذي كانوا مختلفين...

﴿ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥ ﴾ النبأ 4-5

كلا: كلمة ردْعٍ ونجر، أفادت في سياقها نفي بقاء حالة الجهل بالنبأ العظيم، ثم ذكر البديل وهو قوله تعالى: سَيَعۡلَمُونَ فالإنسان لا يتساءل عن أمرٍ إلا إذا كان جاهلاً به، فإذا توفّر له العلم بذلك كفَّ عن التساؤل.

ودلّ استخدام السِّين بدلاً من سوف على قرب الزمن الذي سيعلمون فيه مصداقية النبأ الذي جاء به محمد ﷺ . وأعاد جل شأنه ذكر الآية كما هي، فأفاد بهذه الإعادة أمرين:

الأول: التأكيد، لأن التكرار في بيان اللغوي أسلوب من أساليب تأكيد الدلالة، أي أنه سبحانه يؤكد دلالة (سَيَعۡلَمُونَ) .

الثاني: تَعَدُّد مُسْتَوَياتِ العلم بصدق النبأ العظيم، وذلك إذا أخذنا في الاعتبار أن سبب النزول لا يقف بدلالة الآيات عند مشركي مكّة، بل يتجاوزهم إلى المشركين في كل زمان ومكان ومن شواهد هذا العموم قوله سبحانه:

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ ﴾فصلت: ٥٣

الضمير في (**أنه**) يعود على القرآن (**النبأ العظيم**) وقوله (**يتبين لهم**) يفيد معنى العلم، أي: حتى يعلموا. وهذا الوعد من رب العالمين ماضٍ في كل زمان، وهو أكثر تجلياً في هذا الزمان الذي اتّسعت فيه آفاق العلم. فأدرك أهل العلم من غير المسلمين أن هذا القرآن (**النبأ العظيم**) لا يمكن أن يكون إلا وحياً من السماء، وذلك عندما تبيَّن لهم أنما وصلوا إليه من كشوفات علمية قد اشار إليها القرآن الذي أُنْزِل على رجل أمّي، في أمةٍ أُمّية. وهو ما دعا العديد منهم إلى اعتناق الإسلام .

فمستوى العلم لدى مشركي مكة دعا العديد منهم إلى الإسلام، ومستوى العلم في هذا الزمان أفضى إلى ذات النتيجة، وكذلك هو الشأن في كل زمان، ماضياً كان أم مستقبلاً، وهو ما يُعَدُّ بياناً لدلالة آية (**سنريهم ...**) وتنفيذاً لموعود الله في سورة النبأ، وهو قوله : (**كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون**) .

والأمران : التأكيد وتعدّد مستويات العلم لا يتعارضان، بل هما متوافقان، لأن التأكيد ترسيخ وتوثيق للدلالة، وهو ذات الأمر الذي يُفْضي تعدد مستويات العلم.

2- براهين ذلك النبأ

نبأ المولى عز وجل العباد بأنهم سيعلمون: (**كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون**) ثم ذكر لهم سبيل تحقّق ذلك العلم، وهو النظر والتدبر فيما يجدونه من أسباب الحياة المتيسّرة لهم في الأرض، وهو قوله سبحانه:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ النبأ: ٦ ــ ١٦

وفيما يلي بيان لهذه البراهين:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ النبأ :6

بدأ جل شأنه الخطاب بالاستفهام، ولم يُرِد به حقيقته، بل أراد به التقرير والتوبيخ، ومثاله في أحوال الإنسان أن المرء قد يقدّم لأخيه أصنافاً عديدة من المعروف، فإذا وجد من أخيه انصرافاً عنه وبغضاً، قال له: ألم أفعل لك كذا وكذا؟ وهو ما لا سبيل أمامه لنكران شيء منه، وفي تذكيره بذلك المعروف حال كونه منصرفاً عن صاحب المعروف توبيخ له.

* وقدَّم المولى عز وجل ذكر الأرض على بقية الآيات إشارة إلى أن الأرض هي محور وجود الإنسان، وفِيْها خُلِقَ، وفيها يُدْفن، ومنها يُبْعث، قال تعالى:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ طه: ٥٥

فالأرض مستقرُّ الإنسان حياً وميتاً، وقد ذكر أهل اللغة أن المهاد هو الوطاء والفراش، وأرادوا به أن الله تعالى مهّد الأرض ويسّرها، ليعيش فيْها الإنسان آمناً مطمئناً، وهو قول صحيح لا يختلف عليه اثنان، إلا أننا نُضيف إليه أنها وطاء وفراش للإنسان حياً أو ميتاً، للآية التي ذكرناها قبل قليل، ولقوله سبحانه.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ المرسلات: ٢٥ - ٢٦

قال النسفي رحمه الله: كَفَتَ الشيء إذا ضمّه وجمعه، أي أن الأرض تكفت أحياء على ظهرها، وأمواتاً في بطنها.

* واختيار الفعل (**نجعل**) جاء للدلالة على أن الأرض في مبدإِ أمرها لم تكن مهاداً للإنسان، فصيّرها الله مِهاداً، لأنّ الفعل (**جعل**) من أفعال التصيير التي تفيد تحول الشيء من هيئة إلى أخرى، كأن تقول: جعلت الطين حجراً، تريد بذلك الإخبار بتحول الطين من حالته الطرّية إلى الحالة الصلبة .

فالأرض في مبدأ أمرها كانت كتلة ملتهبة، فأخذت تبرد شيئاً فشيئاً عبر جملة أحوال، تجدون لها ذكراً في علوم نشأة الأرض، إلى أن بلغت تلك الهيئة التي جعلتها صالحة لوجود الإنسان على ظهرها.

﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴾ النبأ : 7

أي أوتاداً للأرض لكيلا تميد بكم.

قال رسول الله ﷺ :

(**لّما خَلَق الله الأرْضَ جَعلت تميدً، فخلقَ الجِبَالَ فعادَ بِهَا عَلَيْها فاستقرَّت...**) رواه الترمذي.

واللفظ القرآني (**أوتاداً**) ينطوي على هذا المعنى، لأن العرب كانوا يشدّون بيوتهم إلى أوتاد، لتستقّر في أماكنها، فلا تميد يمنة ولا يسرة، **قال تعالى:**

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾ النحل: ١٥

وقد تبيّن لعلماء الأرض أن الجبل يمتد إلى باطن الأرض بمقدار ثلثي ما يظهر منه فوق سطح الأرض، وهي ذات الصفة التي تكون عليها أوتاد الخيمة. ولقد اكتشف العلم الحديث بكل وسائله المتاحة أن الأرض عبارة عن كرة مركزها ملتهب ومتفجّر، وسطحها مكّون من صفائح باردة، يمكن أن يتحرَّك بعضها على البعض الآخر في بعض الظروف... وهنا يأتي دور الجبال، وهو تثبيت هذه الصفائح، ولولا ذلك لأصبحت الزلازل والخسوف الأرضية ظاهرة شائعة، لا يجد معها الإنسان والحيوان قراراً ولا متاعاً، **قال تعالى:**

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣ ﴾ النازعات: ٣٢ ــ ٣٣

وذلك في جملة تدبيرات أجراها ربُّ العالمين في الأرض، لتكون مهاداً...

ولكن كون الجبال أوتاداً لا يقف عنده حد تثبيت صفائح القشرة الأرضية، بل يتجاوز ذلك إلى ما هو أعظم وأجلّ، وتفصيل ذلك فيما يلي:

استعارة الأوتاد لبيان وظيفة الجبال قد لا يقف عند الاستعارة، أي أنه قد يتجاوز ذلك إلى بيان أن الأرض والسماء والجبال حالها كحال الخيمة، التي يأ وى إليها العربي في الصحراء، فأرضية الخيمة تمثل السماء، والأوتاد التي تحفظ للإنسان سقف خيمته وظلّه الظليل تمثِّل الجبال التي تحفظ للإنسان أرضه وسماءه.

* كان من تدبير الله العزيز الحكيم أن يكون دوران الأرض حول محورها بزاوية مقدارها 33 درجة ، وهي الزاوية التي تنشأ عندها الفصول الأربعة، ويترتب عليها صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكن . ولو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لعُمر الظلام القطبين طول السنة، ولسار بخار الماء شمالاً وجنوباً، ولما كان على الأرض غير جبال الثلج وفيافي الصحراوات، وبذلك تكون الحياة على الأرض مستحيلة[1] فما الذي يُبْقي الأرض على هذه الزاوية التي تجعل الأرض مِهَاداً للإنسان؟

إنها الجبال، ودليل ذلك قوله سبحانه وتعالى (**وألقى فيها رواسي أن تميد بكم**) أي : لكي لا تميد بكم، وفي اللغة يُقال : ماد الشيء يميد مَيْدَاً ومَيَداناً إذا تحّرك وزاغ، ولا تساويها في ذلك كلمة (**مال**) لأن الشيء إذا مال قد يَسْتقر على حالة الجهة التي مال إليها، أما (ماد) فتفيد تتابع الحركة وعدم الاستقرار على حالة واحدة، وهو عليها للآن، وكأن هذه الجبال إنما هي أثقال تحقق للأرض التوازن المُفْضي إلى ثبات زاويتها في ظل دورانها الدائم حول محورها. ولإيضاح ذلك نضرب له مثالاً بإطار السيّارة مضطرباً، ذلك في عموم حركة السيارة. فيلجأ صاحبُها إلى علاج ذلك بوضع أثقال متفاوتة من معدن الرصاص، فيتحقق له استواء حركة الإطار حول محور الدوران في السيارة، وهذا ما تفعله الجبال، وزّعها الله في أنحاء الأرض، وجعلها أحجاماً مختلفة بما يحقّق للأرض ثباتاً في الدوران حول محورها بزاوية 33 درجة مئوية .

فإذا كانت الأوتاد تثبت الخيمة فوق رأس صاحبها فإن الخيمة التي تنتصب فوق رأس الناس جميعاً هي السماء، والمعروفة باسم الغلاف الجويّ وقد قال عز وجل :

[1] الإسلام يتحدى : وحيد الدين ص64

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

الأنبياء: ٣١ - ٣٢

فبعد أن ذكر الجبال بصفتها (**رواسي**) ذكر أنه جعل السماء سقفاً محفوظاً وقد فُسِّر هذا الحفظ بالحفظ من الشياطين ،لقوله تعالى :

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ الحجر: ١٧

ولكنه تفسير لا يتواءم مع السياق الذي جاء لبيان مظاهر قدرة الله التي يشهدها الإنسان ببصره، ودليله قوله تعالى: (**وهم عن آياته معرضون**) ولا يتحقّق الإعراض إلا عن شيء محسوس، وأما ما تحاول الشياطين أن تفعله فلا يقع تحت مجال الإدراك.

وهذا الغلاف الجويّ سمّاه الله (سقفاً) وهو يناسب دلالة الخيمة، فإذا كان العربي ينصب خيمة لتحفظه من حرّ الشمس ولفح البرد، فإن الغلاف الجوي يحفظ الإنسان من النيازك والإشعاعات الكونية، ومن رياح الشمس المهلكة، ولولا هذا السقف لما كانت هناك حياة على الأرض

فما الذي يحفظ هذا السقف فوق رأس الإنسان ؟

إنها الجبال. وتحقيق ذلك جلاؤه فيما ذكرناه من قبل من أن الجبال هي التي تحفظ الأرض من اضطراب الحركة، أي أن الأرض بدون الجبال ستكون حركتها مضطربة، فإذا علمنا أن الجاذبية الأرضية وهي التي تمسك بالغلاف الجوي وتلاشيه في الفضاء، ومن شأن اضطراب حركة الأرض أن يفضي إلى اختلال الجاذبية وقوة الطرد المركزية الناتجة عن دوران الأرض حول محورها، وتوازن القوتين يحفظ الغلاف الجوي من الانفلات أو الانضغاط فإذا لم تثبت الأرض على زاوية بعينها، وأخذت تضطرت يمنةً ويسرة، فإن ذلك سيفضي إلى تردّد الجاذبية الأرضية بين الزيادة والنقصان، وكلٌّ منهما مفسد لنظام الحياة على الأرض، فإما أن يتلاشى السقف (**الغلاف الجوي**) من فوق رأس الإنسان، وإما أن يقترب من سطح الأرض، فيكون ذلك سبباً في

ارتفاع مستوى الضغط الجوي، وهو ارتفاع سيكون قاتلاً، لأنه سيكون ارتفاعاً فجائياً، لا ارتفاعاً تدريجياً.

فما الذي يحفظ سقف الخيمة (السماء) من كل ذلك ؟ إنها الأوتاد التي حفظت الأرض من اضطراب الحركة وبالتالي جعلت السماء سقفاً محفوظاً.

* وإذا قرأنا القرآن سنجد أن الله تعالى يقرن في مواضع كثيرة بين الجبال وبين السماء، أو بينها وبين السماء والأرض، ومن ذلك :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ الأحزاب: ٧٢

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ النازعات: ٢٧ ــ ٣٣

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ الغاشية: ١٧ ــ ٢٠

﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ ﴾ النبأ: ٨

* وبعد أن مهَّد الله الأرض، وغدت صالحة لمعاش الإنسان خَلَق الإنسان، وقد ذُكِر لفظ الخلق ولم يذكر لفظ الجَعْل لا يفيد معنى الخلق ابتداءً، إنما يفيد أن خلقاً من خلق الله تحوّل من حالة إلى حالة، وهو ما نجده له شاهداً في الآيتين السابقتين . أمّا الإنسان فلم يكن له وجود سابق، بل خلقه الله ابتداءً. **قال تعالى**

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ الإنسان: ١

ولذلك استخدم معه لفظ الخلق.

* قيل في تأويل (**أزواجاً**) ذكر وأنثى، وهو قولٌ فيه نظر إلى أصل الخلق، إلا أنه قول لم يلتفت إلى دلالة الجمع في (**خلقناكم**) حيث يخاطب الله الناس جميعاً بدون استثناء، بمعنى أنّ كل فرد منهم هو زوج، وهم أزواج، يسري ذلك على الذكر والأنثى (**الرجال والنساء**) لأن اللغة تطلق لفظ (**زوج**) على الرجل وعلى المرأة. والشيء لا يُوصف بأنه زوج إلا إذا كان له مثيل من جنسه، لا يسيران في خط واحد، بل في خطين متوازيين، يحققان معاً صورة واحدة، وقد قال رسول الله ﷺ

(**إنّما النّساءُ شقائق الرِّجال**) رواه أحمد أبو داوود والترمذي

* فخلق الإنسان آية من الآيات الدالّة عليه سبحانه. ومن معالم هذه الآية صفة الزوجية التي تشير إلى سمات الذكورة وسمات الأنوثة، وانطواء ذلك كلّه تحت مسمى واحد، هو الإنسان، **قال تعالى:**

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ الذاريات: ٢٠ ــ ٢١

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا ﴾ الروم: ٢١

فخلق الناس أزواجاً آية دالّة على الواحد الأحد، مثلما هي آية تمهيد الأرض وآية توتيد الجبال .

﴿ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ ﴾ النبأ: ٩

سَبَتَ يَسْبُتُ : استراح وسكن والسبت: القطع.

وتَبَعاً لهذه الدلالة تم تفسير الكلمة في سياق الآية بأن الله جعل النوم راحة وسكناً للإنسان، وجعله أيضاً قطعاً للقول والعمل، ومؤشّر هذا القطع رفع القلم عنه وهو نائم.

أما السكون والاستراحة فليسا وقفاً على النوم، لأن الإنسان بمقدوره أن ينالها بدون نوم، وأما دلالة القطع على انقطاع عمل النائم فهي الأقرب إلى المراد، إلا أنها تحتاج إلى مزيد بيانٍ يُظْهر ما من شأنه أن يشير إلى كونها آية من الآيات الدالة على النبأ العظيم:

* في معاجم اللغة يطلق السُّبات على النوم، وذِكْرُهما معاً يستوجب تفاوت الدلالة بينهما، وهو ما يفيد الفعل (**جعلنا**) بدلالته على التحوّل من حالة إلى أخرى، أي أن النوم له مستوى دلالي معين جعله الله مع الإنسان سباتاً . **فما هو المعنى الدقيق للسبات ؟**

هو النوم الخفيف. فإذا نظرنا إلى واقع النوم لدى الناس وجدناه في غالب الأحوال نوماً ثقيلاً، ونص الآية يستوجب أن يكون نوم الناس جميعاً نوماً خفيفاً (**سباتاً**) **فكيف ذلك ؟**

إن وصْف الناس لنومهم بالخفيف مرة وبالثقيل مرة أخرى إنما هو قائم على ما يشهدونه من مستويات النوم لديهم، أما نصّ ربُّ العالمين فلا يتوجّه إلى ما تعارف عليه الناس، إنما يتوجّه إلى مستوى آخر يكون فيه نوم الناس جميعاً نوماً خفيفاً. والنوم الخفيف (**سباتاً**) يستدعي وجود نوم ثقيل، **فما اسم هذا النوم ؟**

إنه الموت . ومن شواهد ذلك أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا استيقظ من نومه:

(**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**).

فالنوم موت، إلا أنه موت مؤقت، يعود من بعده الإنسان إلى واقع الحياة الدنيا. والموت نوم **قال تعالى:**

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ يس: ٥١ ــ ٥٢

فسمّوا القبر مرقداً، والرّقاد هو النوم، وواقع الحال أنهم كانوا أمواتاً في تلك القبور.

إذاً قوله تعالى: (**وجعلنا نومكم سباتاً**) أراد به أنه لم يجعله نوماً ثقيلاً وهو الموت الذي لا صحوة من بعده إلا يوم القيامة.

* ثم إن ذكر النوم في معرض الشواهد الدالة على وجود الخالق المدبر (**النبأ العظيم**) نجد له أثرً لدى أولى الألباب الذين يتفكّرون في خلق الله، إذ دفعهم ما يجدونه من أثر للنوم إلى أسئلة كثيرة: كيف يدخل الإنسان في حالة النوم ؟ وكيف يخرج منها؟ ولماذا بفقد النائم الإحساس

بالزمن؟ وكيف يرى الرؤيا...إلى غير ذلك من التساؤلات التي جعلت البعض يطلق على النوم والأحلام: أبواب العقل المؤصدة.

* ولأن الله تعالى بصدد ذكر ما أنعم به على الإنسان في تفسير أسباب وجوده وأسباب بقائه، فإن ذكر النوم بهذه الصفة التي فصّلنا فيها القول قبل قليل، يستدعي أن يكون النوم الموصوف بأنه سُبْات نعمة كبرى من الله تعالى. وهو ما أشار إليه ﷺ : (**الحمد لله**) بعد استيقاظه من النوم ووجه النعمة في هذا الاستيقاظ هو أن الله منَّ عليه بيوم جديد يستكثر فيه من العبادة والذكر والطاعة التي جعلها الله مناط النجاة وعلوّ الدرجات يوم القيامة، ومن ذلك الحديث التالي :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ النبأ: ١٠ ــ ١١

* وذكر الليل والنهار في معرض تعداد مظاهر الخلق الدالّة عليه سبحانه يدرجهما في جملةِ تلك الآيات ، **قال تعالى**

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

آل عمران: ١٩٠

وبما أن السّمة العامة في تعداد مظاهر الخلق الدالة عليه سبحانه تدور في فَلَك ما أجراه من تقديرات الخلق التي تخدم وجود الإنسان، فإن الليل والنهار نعمتان من نعم الله على الإنسان، **قال تعالى:**

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ القصص: ٧١ ــ ٧٢

فالليل والنهار تستقيم سنن الحياة مع الإنسان، رحمه من الله تعالى، وهو ما صرّح به جلّ شأنه في الآية التالية للآيتين السابقتين:

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ القصص: ٧٣

فالليل بعد النهار نعمة، والنهار بعد الليل نعمة، والنعمة تستوجب الشكر.

* **وقال أهل التفسير** : يكون الليل لباساً بظلمته التي تحجب الأشياء عن بصر الإنسان كما يستجب الجسد باللباس عن أن يطّلع عليه أحدٌ. ويكون النهار معاشاً، أي وقتاً يطلب فيه الإنسان أسباب عيشه، وهو قوله سبحانه في الآية السابقة: (**ولتبتغوا من فضله**). إذ مع النهار يكون الإبصار.

والوقوف بهذا التأويل عند هذا الحدّ قد لا يتناسب مع ماقلناه من أن الليل والنهار في ذاتيهما رحمة من الله، لأنه تأويل لا يمنع الإنسان من طلب معاشه في الليل مع النهار، والنهار قد يكون لباساً بالإخلاد فيه إلى النوم، عند من قرن الليل بالسكون .

أي أن اقتران صفة اللباس بالليل وصفة المعاش بالنهار يستدعي اختصاص كلٍّ منهما بصفته دون الآخر، فلا يأتي الليل معاشاً، ولا يأتي النهار لباساً، لأن ما ذكره الله في الآيتين جاء في معرض سنن الخلق الثابتة، والتي لايملك الإنسان الخروج عن إطارها، وفيما يلي بيان لهذا الوجه

إن الإنسان في تكوينه ما هو إلا صورة من صور المادة الموجودة على الأرض، يخضع لقوانين الطبيعة كغيره من الأحياء، فالنبات ، مثلاً، ينال معاشه من ضياء الشمس، ويأخذ من الهواء ثاني أكسيد الكربون، ويعطي الأكسجين، فإذا غابت الشمس، وأقبل الليل توقَّف عملية التمثيل الضوئي وشرع النبات في امتصاص الأُكسجين من الهواء وإنتاج ثاني أكسيد الكربون، عكس ما يكون منه في النهار.

وكذلك هي طبيعة الإنسان، تُؤَثّر فيها تقلبات الليل والنهار تأثيراً ينسجم مع ما هو خير له كظاهرة طبيعة، فإذا حدث أن غدا الليل سرمداً أو غدا النهار سرمداً فإن الإنسان سيفقد محوراً

هاماً من محاور كون الأرض (**مهاداً**) وهو ما جعل الله عزّ وجلّ يمتنّ على الناس بأنه إن أصبح الليل أو النهار سرمداً، فإن الإنسان لن يجد من يأتيه بالمفقود منهما إلا هو سبحانه.

وتأثير الليل والنهار في تحقيق مصالح الإنسان في ذاته تأثير خفيّ، فهو أدق من أن يقع تحت مجال الإدراك، إلا أن الإنسان يشهد أثره في نفسه مع تطاول المدة. ومن ذلك أنني لاحظت أن الذين يتخذون الليل سكناً، فلا سهر ولا أضواء، أوفر صحّة وعافية من أولئك الذين يطيلون السهر تحت الأضواء. وقد تبيّن للعلماء أن الغدّة الصنوبرية في الدماغ غدة حساسة للضوء، وهي تفرز هرموناً يُسَّمى (**الميلاتونين**)، ووجدوا أن هذا الإفراز يزداد بشكلٍ ملحوظ عند وضع الحيوانات في الظلام، ويقلّ عند تعرّضها للضوء. وما يجري على الحيوان يجري على الإنسان .

وهذه الحقيقة العلمية التي بّينت وجهاً من وجوه العلاقة بين الغدّة الصنوبرية وبين الظلام والضوء (**الليل والنهار**) إنما هي جزء من العلم بأثر الليل والنهار على الإنسان ... لعل الله ييسّر للإنسان أجزاء أخرى من هذا العلم في قابل الأيام .

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ النبأ: ١٢

أي سبع سموات شداداً، وهي تلك السموات التي يعلو بعضها بعضاً. وقد جاء حديث الإسراء والمعراج ذكر لكل سماء ومن فيها من الأنبياء، وصولاً إلى السماء السابعة التي ينتصب فيها البيت المعمور.

وقال ربّنا في الآية (**بنينا**) ولم يقل: جعلنا أو خلقنا، مع أنهما معنيان حاصلان للسماء، ففي معنى الخلق وردت آيات كثيرة، وفي معنى الجعل نجد **قوله تعالى:**

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ البقرة: ٢٩

أي أنها كانت سماءً واحدة فجعلها الله سبع سموات .

وقد تكّرر ذكر لفظ البناء مع السماء، وهو ما من شأنه أن يكون توجُّهاً إلى دلالة معينة. **فما هي هذه الدلالة ؟**

قال الله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧﴾ الذاريات: ٧

قيل في تأويل ذلك سبعة أقوال، ومع ذلك فإن المتتبع لها سيجد أنّها تعتمد على المعنى الأصل لكلمة (**حبك**) وهو الشدّ والإحكام، والذي ذُكر بلفظه في الآية (**شداداً**).

ومن بين تلك الأقوال المذكورة في تأويل الحبك قولهم : حبك الثوب يحبكه حبكاً إذا أجاد نسجه، وكذلك هي السماء حالها كحال الثوب الواحد الذي أُحْكِم نسجُه، فالكون، ابتداء من الأرض وانتهاءً بآخر نجم ترصده المراصد الفلكية، بناء واحد يشدُّ بعضُه بعضاً، فالمجموعة الشمسية تدور حول الشمس، فلاهي تسقط على الشمس، ولاهي تنفلت منها. والشمس ذاتها نجم من نجوم المجّرة، تدور مع ملايين النجوم حول قلب المجّرة، وهذه المجّرة فرد في مجموعة مجّرية تدور حول مجرة كبرى، وذلك على غرار المجموعة الشمسية . وهذه المجموعة المجّرية ليست منفصلة عن غيرها من المجموعات المجّرية، بل هي متواصلة مع بعضها البعض في نظام شديد الإحكام، مثلما هو الثوب الذي أُحْكِم نسجه.

* ومما يزيد هذا المعنى توثيقاً قوله تعالى:

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾ النازعات: ٢٧

فعقَدَ المقارنة بين خلق الإنسان وبناء السماء، أيهما أشد خلقاً ؟ ووجه المقارنة بينهما أن كلاً منهما بناء بنا الخّلاق العليم، فإذا وقفنا على نظام بناء الإنسان كان لزاماً إجراء ذلك النظام على بناء السماء. **فما صفة بناء الإنسان ؟**

اللبنة الأولى التي يُبْنى بها هيكل الإنسان هي الذرة، تتألف الذَّرات فيما بينها لبناء المركبات الكيماوية، وهذه المركبات تتألف فيما بينها لبناء عُضيَّات الخلية، ومن جملة الخلايا تُبْنى الأعضاء الداخلية والخارجية، ومن هذه الأعضاء يُبْنى ذلك الهيكل المعروف بالإنسان وبالرغم من هذا البعد النسْبي بين الأجزاء التي بُني بها هيكل الإنسان فإنها تمثّل وحدة واحدة، فما يقع على جزء من الهيكل يمتدّ أثره إلى بقية الأجزاء، وهو قول رسول الله ﷺ

(مَثَلُ المؤمنين في تَوَادّهم وتراحُمِهم كَمَثَل الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى منه عضوٌ تَدَاعى له سائرُ الجَسَدِ بالحّمى والسَّهَر) .

وهذه هي حقيقة بناء هيكل الإنسان، فإذا نظرنا إلى عقد المقارنة بينه وبين بناء السماء أدركنا أنها تسري على كواكبها ونجومها ومجرّاتها نفس التواصل الكائن بين أجزاء الإنسان، فهي هيكل متواصل الأجزاء مثلما هو هيكل الإنسان.

* حكم السياق

هل هناك انتفاع للإنسان من خلق السموات؟

الجواب على ذلك يصرّح به السياق، فقد جاءت هذه الآية في سياق آيات تلفت نظر الإنسان إلى مظاهر نعمة الله لباس، والنهار معاش ... وكل ذلك له وثيق التعُّلق باستقامة معاش الإنسان في الأرض، ثم ذكر جل شأنه السموات السبع، ولم يقف عند ذكر أمْرها، بل استمر فذكر السراج الوهّاج والماء الثجاج، وكل منهما معدودة في قائمة واحدة، ابتدئت بقوله تعالى (**أَلَمْ نجعلِ الأرض مهاداً**) .

فكان إدراج (**وبنينا فوقكم سبعاً شداداً**) في ذلك النسق إعلاماً بأن الحياة على الأرض لم تكن لتستقيم لولا هذه السموات السبع. وليس في عدم وقوف الإنسان على وجه ذلك ما يبرّر الاعتراض على هذه الحقيقة

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ النبأ: ١٣

في هذه الكلمات الثلاث ذكر المولى عز وجل ثلاث حقائق متعلقة بالشمس، وكلها تمثل مظهرا من مظاهر قدرته الدالة على أنه الإله الحق وفيما يلي بيان لهذه الحقائق :

أولاً : وجعلنا

الفعل : جعل، من الأفعال التي تأخذ مفعولين، وهو يفيد التصيير، ومثال ذلك: جعلت الطينَ حجراً، فالطين والحجر كلاهما مفعول به، وجاء الفعل (**جعل**) ليفيد أن الطين تحوّل من حالة

الطين إلى صفة الحجر، إلا أن عدداً من أهل التفسير اختاروا القول بأن الفعل جعل معناه: خلق، واستندوا في ذلك على اكتفاء الفعل بمفعول واحد: (**وجعلنا سراجاً**) وهو اختيار لا يستقيم، لأن الخلق أمر قد ابتداءً، أي أن يتحقق وجود الشيء بعد أن لم يكن موجوداً. والآية لا تخبر عن وجود الشمس ذاتها، إنما عن دورها في بناء الإنسان واستقامة الحياة له في الأرض، ولذلك لم يذكرها جل شأنه باسمها (**الشمس**) إنما ذكر ما تؤديه في الحياة الإنسان: (**سراجاً وهاجاً**) وهما أمران لم يتحققا إلا بعد جملة من التحولات في خلق الشمس وتمهيد الأرض، ولهذا فإن أصل الجملة هو : وجعلنا الشمس سراجاً وهّاجاً، لتكون الشمس مفعول جعل الأول، وسراجاً مفعول ثاني، وتم الاكتفاء بالمفعول الثاني لأن سياق الآيات يدور حول محور تذكير الإنسان بمظاهر الحياة المتيسّرة له في الأرض، ومن بينها دلالتها السّراج والوهّاج.

ثانياً: سراجاً

تتوجه هذه الكلمة إلى دلالتين، دلالة في الشمس ذلتها، ودلالة في أدائها لدى الإنسان:

1- الشمس سراج

من المعلوم أن السِّراج وعاء يستخدمه الإنسان للإنارة إذا أقبل عليه الليل، وشرط الإنارة في السراج أن يكون محتوياً على الوقود، ولذلك فإن الإنارة التي يؤديها السراج في المكان المظلم تنبعث من السراج ذاته . وكذلك هي الشمس، تنبعث الإنارة منها بما أودعه الله فيْها من وقود . فما وقودها ؟

إن التحليل الطيفي لأشعة الشمس يعطي الكثير من الأدلة على أن مادة الهيدروجين تشكل القسم الأعظم من مادة الشمس، مع العلم بأن كتلة الشمس أكبر من كتلة الأرض بمقدار (333550) ضعفاً.

تحدثُ التفاعلات النووية بين ذرات الهيدروجين، فينتج عن هذا التفاعل طاقة نووية هي مبعث ما يصل إلينا من ضوء ومن حرارة. وقد فصّلت الكتب العلمية هذا الأمر تفصيلات واسعة لامجال لذكرها في هذا البيان.

فهل تقف دلالة السراج عند هذا الحد ؟

لو اقتصر الأمر على هذا الحد لما كانت هناك إنارة في الأرض، ودليل ذلك أن روّاد الفضاء عندما صعدوا في ا لسماء وتجاوزوا الغلاف الجوي لم يجدوا إلا ظلاماً مع أنهم كانوا أقرب إلى الشمس من أهل الأرض، وقد أشار جل شأنه إلى هذه الحقيقة في **قوله تعالى** :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ الحجر: ١٤ ــ ١٥

سُكِّرت: حُيِّرت أو حُبِسَتْ من الإبصار، وذلك بسبب الظلمة المطبقة

إن الذي يحقق الإنارة على وجه الأرض هو التراب العالق في الغلاف الجوي، وليس المقصود ذلك التراب الذي تراه العين المجرّدة، إنما هو حبيبات قطر الواحدة منها 1|1000 من الملليمتر، بل هناك ما هو أصغر من ذلك بألف مره ، فالنفثة الواحدة من دخان السجائر تحوي أربعة مليارات من تلك الحبيبات المنفصلة.

هذه الحبيبات لا يخلو منها الجو حتى وهو في أشد حالات الصفاء، وهي التي تحقق لنا الإضاءة عبر ظاهرة الحيود التي تحدث لأشعة الشمس حين تعترضها حبيبات التراب...

2- ضَوْءُ السِّرَاجِ

إن ضوء السراج الذي يغمر وجه الأرض لا يقف حدِّ الإنعام به عند مجرّد الإنارة (**النهار**) بل يتجاوز ذلك إلى ما هو أعظم وأجل، وهو تحقيق فعالية الحياة في الأرض، فلولا هذا الضياء لما كانت هناك حياة، وتفصيل ذلك فيما يلي:

لولا ما تنبته الأرض من نبات لما كانت هناك حياة للإنسان ولا للحيوان، وهذا النبات لا سبيل إلى نمائه إلا بضوء السِّراج، الذي يُعْرف في اللغة العلمية بلفظ الطاقة الضوئية، وقد يسَّر الله للإنسان العلم بحقائق تكوين النبات، وهي ما لخَّصَه العلماءُ في المعادلة التالية:

6 جزيئات ماء(6 يد2أ) + 6 جزيئات ثاني أكسيد الكربون (6 ك أ) + 673 كيلو سعر من ضوء الشمس ⟵ جزئ سكّر سداسي (ك6 يد12 أ6) + 6 جزيئات أكسجين ....

وقد سُمِّيت هذه العملية بعملية التخليق الضوئي، إذ تتحول الطاقة الضوئية إلى طاقة كيميائية مختزنة في النبات، فإذا أكل الإنسان أو الحيوان من ذلك النبات تحوّلت الطاقة إليه، وبهذه الطاقة تنبعث كل مظاهر الحالة الوجودية للإنسان، وكأن الإنارة التي يؤديها ذلك السراج ليست فقط إنارة للرؤية البصرية، بل وإنارة للحالة الوجودية.....

ثالثاً: وهّاجاً

ومن نعمة الله على الإنسان في رحلته الدنيوية أن جعل ذلك السراج وهّاجاً، والوهاج في اللغة هو حرارة الشمس أو النار من بعيد، وذكروا أيضاً أن الوهج يعني التوقد. فيقال : توهَّجت النار إذا ازداد اشتعالها. والمعنيان متلازمان، فمع ازدياد الاشتعال يزداد انبعاث الحرارة. والأمران حاصلان للشمس فهي في ذاتها مشتعلة، وصورة اشتعالها هو تلك الانشطارات النووية لذرات الهيدروجين، وما ينبعث عن تلك الانشطارات من لهب الطاقة النووية. ويصل أثر ذلك إلى الإنسان وهو الوهج، أي الحرارة التي يشعر بها الإنسان من أثر توهّج الشمس ،

وقد عدّ جل شأنه ذلك الوهج أثراً من آثار قدرته المدرجة في قائمة ما أنعم به على الإنسان، فلو كانت الشمس أقرب قليلاً إلى الأرض أو أبعد لانهار نظام الحياة في الأرض. فكان من تقدير العزيز العليم أن تكون الشمس في ذلك الحجم وذلك البعد، الذين يجعلان وهجها في حدٍّ ما ينفع الإنسان في دنياه، فلا هي تحرقه بوهجها، ولاهي تتركه للبرد القاتل.

وما يسري على الإنسان يسري على الحيوان وعلى النبات . وقد جعل المولى عز وجلّ لهذا الوهج حداً أعلى وحدّاً أدنى، تتقلب درجات الوهج بينهما، تبعاً لتقلبات الفصول، وفي ذلك نعمة أخرى من نعم الله الواحد الأحد، تبرز بجلاء فيما تخرجه الأرض من الثمار والحبوب مالا ينبت مع انخفاض درجة الوهج، وفي الشتاء تنخفض درجة الوهج، فتنبت الأرض مالا تنبته في فصل الصيف، لتتسع بذلك دائرة نعمة الله عز وجل على الإنسان، فيما يخرجه له من رزق...

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ﴾ النبأ: ١٤

المعصرات : قيل هي السَّحاب، وقيل هي الرياح، ولا تعارض بين القولين، لأن السحاب الذي ينزل منه الماء تحمله الرياح ، **قال تعالى:**

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ الأعراف: ٥٧

والمقصود برحمته ما ينزل من السماء من ماء .

وقد اختار القرطبي، رحمه الله ، معنى السحاب، واستند في ذلك على أمرين، الأول : أن الغيث ينزل من السحاب، لا من الرياح، والثاني: أنه لو أراد الرياح لقال : أنزلنا بالمعصرات....

فما معنى المعصرات ؟

أعصر : على وزن أفعل، فالهمزة مزيدة ، والفعل عَصَر يَعْصِر عَصْراً، ومن معانيه:

عَصَره : استخراج من الشيء ماءه بَلِيَّة .

عصر الدّمّل: استخرج المدّة منه.

عصر العنب: استخرج ماءه .

عَصَرَ الركْضُ الفرسَ: عرَّقه.

فإذا دخلت عليه الهمزة أفادت دخول الشيء في الحدّ الذي يكون معه العصْر، ومن ذلك قول الشاعر: **جاريةٌ بسَفوانَ دارُها تَمْشِي الهُوَيْنا ساقِطاً خِمَارُها**

قد أَعْرتْ أَوْ قَدْنَا إعْصَارها

فكان من معاني المُعْصر: الجارية أول ما أدركت وحاضت، وهم في ذلك ينظرون إلى دلالة (**عصر**) لأن الحيضة (**سائل**) ينبعث من الجارية أو إن إدراكها. بلغت الحدّ الذي يكون معه انبثاق الغيث منها. فليس من كل السحاب ينزل الماء، إنما نزوله فقط من السحابة المعصرة، ولذلك اختار جل شأنه كلمة: (**المعصرات**) .

ثجّاجاً: ثجَّ الماءُ يَثُج ثُجُوجاً أي تَدَفق، وقد جاءت الكلمة على وزنٍ من أوزان المبالغة: فعّال، لإفادة الكثرة.

﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ النبأ: ١٥ ــ ١٦

اللام في قوله (**لنخرج**) لام التعليل، أي أن السبب والغاية التي من أجلها أنزل الله من المعصرات ماءً ثجاجاً هي إخراج النبات من الأرض. وقد استقصى جل شأنه في الآيتين كل ما تنبته الأرض مما ينتفع به الإنسان، فذكر الحبَّ والنبات والجنات. فهناك زروع لا يطلب الإنسان منها إلا الحب كالحنطة والشعير وما كان على شاكلتهما، وهناك زروع يستنبتها الإنسان لذاتها وهي الخُضَر، وهناك جنات أي بساتين، وسمة هذه البساتين أنها ذات أشجار عالية، تمتد من نواحيها الأربع، فتشابك الأغصان مع الأغصان، فتجنّ ما تحتها أي تستره، ولذلك سُمِّيت جَنة.

ألفافاً: من الكلمات التي لا تحمل هوية واحدة، بل هويات عديدة:

* جَمع لِفّ كجِذع وأجذاع
* أو جمع لفيف كشريف وأشرف.
* أو جمع لا واحد له كأوزاع وأخياف .
* أو جمع الجمع : فالمفرد لفّاء وجمعه لُفّ، وجمع الجمع ألفاف.

وكل ذلك لا يُخل بالمعنى الأصل الذي يدل عليه الفعلُ: لَفَّ، الذي يصاغ منه الفعل : التف، فهي جنات ملتفة الأشجار، لكثرتها وامتدادها طولاً وعرضاً.

ونلاحظ أن الآيات الأربع الأخيرة تتضافر فيما بينهما لأداء معنى ما يَسَّرَه الله عز وجل للعباد من رزق، وهو **قوله تعالى:**

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢٢

فذكر الماء من السماء، وذكر إخراج النبات، وطوي ذكر السراج الوهاج، وصرّح به في سورة النبأ، لأن المعرض معرض تفصيل لأركان إخراج الرزق من الأرض. فليس بالماء فقط تنبت الأرض نباتها، بل لابد من ضوء السراج الوهَّاج، الذي تتمّ به عملية التمثيل الضوئي، الذي بدونها لا نماء للنبات.

3- وماذا بعد ؟

بعد أن فصل جل شأنه الآيات الدالة على صدق النبأ الذي جاء به محمد ﷺ ، وهو أنه لا إله إلا الله ، شرع في إعلان حقيقة كبرى ملازمة لذلك النبأ، وهي أن الذي أبدع كل ذلك الخلق لم يقضِ ببقائه أبد الآبدين، بل قضى بزواله وقيام يوم آخر مكانه، وهو يوم الفصل، وقد ذكر الله عز وجل في نسقين:

الأول : مشاهد قيام يوم الفصل

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ النبأ: ١٧ – ٢٠

ابتدأ جلّ شانه ذكر خبر يوم الفصل بحرف التوكيد (**إن**) وفي ذلك التفات بلاغي إلى حالة المخاطبين أمام خبر يوم الفصل، فهم في شك من ذلك الخبر، فاستلزم هذا الشك التأكيد بأنّ وفي مصطلح البلاغيين يسمى هذا الخبر بالخبر الطلبّي.

وقد اختار جل شأنه تسمية يوم القيامة بيوم الفصل موافقة لمبدأ السورة الذي ذكر اختلاف الناس في النبأ العظيم، ففي يوم القيامة يُفْصل في تلك القضية، فينتهي مع هذا الفصل كل اختلاف، لأن حقيقة النبأ العظيم لن تكون خبراً غيْبياً، بل ستكون ماثلة بمشاهدها أمام سمع الإنسان وبصره.

وقد جمع جل شأنه بين الأمرين الاختلاف والفصل، في آية واحدة، وهو **قوله تعالى:**

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ السجدة: ٢٥

وقد جعله الله ميقاتاً، أي حدَّاً زمنياً قدّره عز وجل قبل خلق السموات والأرض، واستأثر بعلمه، فلا يعلم أو أنه إلا هو:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

الأعراف: ١٨٧

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ النبأ: ١٨

يوم: بدل من (**يوم**) الأولى، أو ظرف زمانٍ له.

يُنْفخ في الصّوْر هو القرن، قال ﷺ :

(كيفَ أَنْعَمُ وصَاحِبُ القرنِ قد الْتَقَمَه، وحَنَى جَبْهَته، وأصْغَى سَمْعَه، يَنْتَظِر متى يُؤْمَر ؟)

رواه أحمد والترمذي

والنفخ في الصور سببٌ للموت وسبب للحياة، **قال تعالى:**

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الزمر: ٦٨

وإذا كان الصُّور يعني البوق فإن النفخ فيه سيكون انبعاثاً لصوتٍ ما، **فهل يبلغ الصوت حدّ كونه سالباً للحياة ؟**

قال تعالى في ذكر هلاك قوم كذبوا أنبيائهم :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ يس: ٢٨ ــ ٢٩

فبصيحة واحدة (**نفخة**) يموت الناس جميعاً، وبصيحة وأخرى يعودون إلى الحياة، وكل ذلك بتقديرٍ وتصريفٍ من العزيز العليم.

فتأتون أفواجاً : الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب، وهي بهذه الإفادة تدل على أن الإتيان بعد النفخ في الصور مباشرة، وفي ذلك امران:

الأول: أن النفخة المقصودة في قوله تعالى : (**يوم ينفخ في الصور**) هي النفخة الثانية، والإتيان فِعْلٌ لا يتحقّق معناه إلا بتوجّه مقصود إلى مكان بعينه، ثم الوصول إليه، **فما هو هذا الكتاب ؟**

قال تعالى في وصف خروج الأموات من قبورهم مع النفخة الثانية:

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ المعارج: ٤٣

يُحْي الله الموتى فيخرجون من قبورهم سراعاً، وغاية هذه السرعة الوصول إلى جهة بعينها، وقد مثّل لها عز وجل بالنُّصُب، وهو تلك العلامة التي تُنْصَبُ عند حدٍّ معين، فيتسارع إليها المتسابقون، فإذا وصل الميّت إلى الحد الذي قدّره ربّ العالمين أُسْنِدت إليه دلالة الفعل (**تأتون**)

ولا يقف المشهد عند مُجَرَّد الإتيان، لأن الآيات التالية تذكر مشاهد أخرى من مشاهد يوم الفصل، فبعد الخروج من القبور، وتسارع الأموات نحو الغاية المقدَّرة تتشقق السماءُ فتصبح أبواباً، وتُسيَّر الجبال فتكون سراباً

فما هي الغاية الي سينطلق إليها الناس بعد بعثهم ؟

إنه موقف الحشر الذي صرّح به المصطفى ﷺ في صحيح مسلم:

(لا تقومُ السّاعةُ حتى تخرَج نارٌ من أرْض الحِجَازِ، فتَقِيْل مَعَهُم حيثُ قَالوُا ، وتُمْسِي معهم حيثُ أَمْسَوا، وتُصْبحُ معهم حيثُ أَصْبَحُوا) رواه الترمذي وأحمد: (فإذا سمعتم به فأخرجوا إلى الشام).

وقال ابن عباس: من شك أن الحشر في الشام فليقرأ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ الحشر: ٢

وذلك أن النبي ﷺ قال لهم : (**أخرجوا، قالوا: إلى أين ؟**) قال: (**إلى أرض الحشر**)

أما قوله (**أفواجاً**) فهو حال لإ يتان الناس، فهم لا يأتون فوجاً واحداً بل أفواجاً متتالية، وهذا يستدعي أن لا تكون نفخة القيام واحدة مع الناس جميعاً، وفي بيان ذلك قال القرطبي في التذكرة:

إن نفخة الإحياء تمتدّ وتطول، فتكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج من القبور، فلا يسمعون ما يكون للإحياء، ويسمعون ما يكون للإزعاج. ويحتمل أنّ تتناول تلك النفخة والناس يحيون منهاً أولاً فأول، وكلما حي واحد سمع ما يحيا به من بعده إلى أن يتكامل الجميع للخروج..

جاءت في كلمات القرطبي رحمه كلمات تحتاج إلى بيان:

الإزعاج من القبور: بعد أن يُحْي الله الميت في قبره يبقى راقداً في قبره إلى أن يُزعجه (**يوقظه**) سماع امتداد النفخة.

أولاً فأول: يحي الأول بالنفخة المقدّرة له، إلا أنه يبقى راقداً في قبره، فيستيقظ لسماع النفخة التي يحيا بها من بعده.

والثابت أن الناس لا يبعثون من قبورهم فوجاً واحداً، بل على نظام أفواج عديدة، وهذا يستدعي أن يكون النفخ متعدّداً، وهذا التعدّد قد يُعْترض عليه بأن الله تعالى لم يَقْضِ إلا بنفختين، الأولى لصعق من كان حياً، والثانية لبعث الأموات من قبورهم، فهي نفخة واحدة، لا نفخات عديدة والجواب على ذلك هو التعدّد مدرج في معنى واحد، وهو نفخة يتحقق بها قيام الإنسان من قبره. مثلما هو لفظ الجنة، واحد في معناه، إلا انه معنى تذهب دلالته إلى جناتٍ عديدة، ومسوّغ هذا التوجّه أن هذه الجنات تشترك في معنى واحد، وهو دلالته اللغوية لكلمة (**جن يجُنّ**) وأنها جميعاً تحمل دلالة النعيم.

ولهذا فإن نظام التفويج يستدعي أن تكون كل نفخة مُخَوَّلة بأن تحي فقط شريحة معينة من الأموات، وهنا يأتي السؤال عن الغاية من وراء ذلك التفويج ؟

الغاية هي أن يتمايز الناس في موقف الحشر، وهو ما جاء بيانه في أحاديث المصطفى ﷺ :

* فعلى مستوى الأمم

قال ﷺ

(عرِضَتْ عليَّ الأممُ فجعلَ النبيُّ والنبيّات يَمُرّون معهم الّرهْطُ، والنبي ليس معه أحدٌ، حتى رُفِع لي سَوادٌ عظيم، قلتُ: ما هذا ؟ أمتي هذه ؟ قيل: هذا موسى وقومه. قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا –في آفاق اسماء، فإذا سواد قد ملأ الأفق قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب) رواه البخاري ومسلم.

فكل أمّة تأتي مستقلة عن غيرها من الأمم، وهو ما يستدعي أن يكون الإتيان قائماً على نظام التفويج، وسبيله نفخة خاصة بكل فوج تقيمهم من قبورهم دون غيرهم من الناس.

* وعلى مستوى الأمة الواحدة يسري نظام التفويج، فهناك فوج الذين يظلهم الله بظله، وهناك فوج الجالسين على منابر من نور...إلى غَيْر ذلك مما بيّنته أحاديث المصطفى ﷺ .

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩ ﴾ النبأ: ١٩

مشهد آخر من مشاهد انطلاق يوم الفصل، عَطِفَ على المشهد الأول بحرف العطف الواو إشارة إلى مصاحبة هذا لذاك، فالوجود كله في حالة مخاض لميلاد اليوم الآخر، فالأرض تنشق عن بشر كانوا من قبل تراباً، والسماء فتحت فتحات عديدة (**أبواباً**) والجبال تحرّكت من مراكزها فاضحْت سراباً ....

والسماء لا تفْتح إلا إن كانت مغلقة، فما إغلاقها ؟

قال تعالى:

﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾ ق: ٦

فروج: فتوق وشقوق.

فإذا أزفت الآزفة انشقت السماء فغدت ذات فروج، أي أبواب. والباب في العُرْفِ اللغوي منفذ يُسْتَخْدم للدخول أو الخروج.

كانت: الفعل هو فعل الكينونة، وليست هناك من كينونة تَجْري في الأرض ولا في السماء إلا بكلمة (**كن**) من الخلاّق العليم. ومن ذلك تلك الكينونة الجديدة للسماء، قال لها رب العالمين: كوني ذات أبواب، (**فكانت أبواباً**) . **فلماذا هذه الأبواب ؟**

عندما يذكر لنا المولى عزّ وجل أنه أحكم بناء السَّماءِ، وأنه لم يجعل لها من فروج إنما يبيِّن وجه نعمة من نعمه لا تُعدّ ولا تحصى، وهي حفظ المهاد وحفظ الإنسان من الشهب والنيازك ومن

الإشعاعات المهلكة المنبعثة من الشمس. فإذا أصبحت السماء ذات فروج نفذ كل ذلك إلى الأرض حاملاً كل هولٍ إلى الإنسان وفوق ذلك تقترب الشمس من الأرض، وهو قول رسول الله ﷺ :

(تُدْنى الشمسُ يومَ القيامةِ من الخَلْقِ، حتى تكون منهم كَمِقْدار ميلٍ) رواه مسلم.

ومع اقتراب الشمس وفتح أبواب السماء أمام إشعاعاتها المؤذية ترتفع درجة الحرارة ارتفاعاً شديداً، فيعرق الناس عرقاً هو في حد ذاته عذاب فوق عذاب الحر والعطش الشديدين، وهو قول رسول الله ﷺ في بقية الحديث السابق:

(فيكون الناس على قدْرِ أعمالهم في العرق: فمنهم من يكونُ إلى كعبية، ومنهم من يكون إلى رُكْبتيه، ومنهم من يكونُ إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرقُ إلجاماً).

ومما يدل على شدة ما يلقاه الناس من ذلك أنهم يلجأون إلى أنبياء الله، ليشفعوا لهم عند ربهم للبدء في إخراجهم من ذلك العذاب، فلا يسعى لهم في ذلك إلا صاحب المقام المحمود محمد ﷺ

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ النبأ: ٢٠

وصف الله عز وجل الجبال في معرض بيان تمهيد الأرض لمعاش الإنسان بأنها رواسي، وهو قوله تعالى:

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ النحل: ١٥

ومعنى (**رواسي**) ثوابت، أي أنها ثابتة في مكانها في نظام هندسيّ دقيق يحفظ الأرض من أن تميد، أي من أن تضطرب . فإذا جاء يوم الفصل سُيِّرت هذه الجبال، أي تحرّكت وتركت أماكنها لتختل بذلك موازين ثبات الأرض، ومع هذا الاحتلال تنشأ الزلازل والخسوف الأرضية، ويحيط الموت بالإنسان من كل مكانٍ وما هو بميِّت .

فكانت سراباً، والسراب هو ذلك الماء الذي يلو للناظر، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، فكيف تغدو الجبال سراباً ؟

قال القرطبي: تصبح الجبالُ لا شيء كما أن السراب كذلك، يظنه الرائي ماء ، وليس بماء. وقد اختار ابن كثير رحمه الله ما اختاره القرطبي. مع إقرار بأن التيسير غير النسف...

نلاحظ أن الله تعالى لم يستخدم حرفاً يفيد معنى تشبيه الجبال بالسراب، بل هي السراب عينه، ولفهم الصحراء. فالذي يشهد السراب يلاحظ أنه لا يبقى في الموقع الذي لاح فيه لأولّ مرّة بل يتحرّك قُدماً أمام العين إذا توفّرت أسباب ظهوره . ومن هذا الوجه جاء وصف الجبال بالسراب، ويؤيد ذلك ‘سناد صفة السير وهو سعي الكتلة، أياً كانت، من مكان إلى آخر. فالإنسان، يوم الفصل، يرى الجبل فنظنّه قائماً في مكانه، وواقع الحال أنه يتحرك من مكانه، وهو قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ النمل: ٨٧ ــ ٨٨

قال النسفي رحمه الله

إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة في مكان واحد، وذلك لأنها ذات كتلة عظيمة، وكذلك هي الأحجام العظيمة المتكاثرة العدد، إذا تحرّكت لا تكاد تتبيّن حركتها...

بل إنّ إطلاق دلالة السراب على الجبال يشير إلى أبعد من ذلك، وهو ما نستعين على فهمه **بقوله تعالى:**

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ النور: ٣٩

ينظر الظمأن إلى الأفق فيلوح الماء لناظريه، فيتوجه إليه، فإذا وصل إلى موضعه لم يجده شيئاً، وكذلك هو الأمر مع الجبال ، يراها الإنسان وقد سيرّها الله عز وجل، فهل يكون التيسير قدراً ملازماً لها ؟

قَدَر الجبال يوم القيامة أن لا يكون لها بقاء، وهو قوله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ طه: ١٠٥

أي يجعلها كالرمال، ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها

وعلى ذلك فإن تسيير الجبال هو مبدأ كونها سراباً. فمثلما يلوح السراب للظمآن، ثم تنقضي صورته عند الوصول إلى موضعه، تلوح الجبال للناظرين يوم الفصل وهي تمرُّ مرّ السحاب، ثم يصل الأمر إلى النّسف الذي يجعلها تراباً، فلا ترى في الأرض جبلاً واحداً، فلقد اختفت صورة الجبل من الأرض مثلما اختفت صورة الماء في الصحراء، فكلٌّ منهما كان سراباً .

ولأن يوم الفصل يوم ملئ بالأهوال فإن نسف الجبال لتكون سراباً ليس بالأمر الهّين، ويكفينا في الدلالة على ذلك أن نعلم أنّ موسى عليه السلام لم يصعق بتجلِّي الله، إنما صُعق لهول مارآه من اندكاك الجبل إذ تجلّي عليه رب العالمين، فكيف إذا كان النسف لجبال الأرض جميعاً، مرةً واحدة أو تباعاً ؟!

الثاني : ما بعد الفصل

بعد أن بيَّن المولى عز وجل أن خلق السموات والأرض والإنسان مرحلة من مراحل الخلق، ذكر أن هذا الخلق الدنيوي ليس خالداً، وأن من مات من الناس لن ينتهي به الأمر عند حدّ الموت، بل سيمضي كل ذلك إلى يوم الفصل، فتنقضي الحياة على الأرض، ويبعث الأموات من قبوره، والغاية من ذلك انتقال الإنسان إلى دارٍ من دارين، الجنة أو النار، فهو قوله تعالى:

1- مآل الطاغين

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا

يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾
فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ النبأ: ٢١ - ٣٠

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ النبأ: ٢١

مرصاداً : من الرَّصَد، وهو ما يترصّده الإنسان، أي يراقبه مراقبة دائمةً للفتك به، أو الحصول عليه. ومرصاد على وزن مِفْعال من صيغ المبالغة أي أن جهنم ترى الطاغين، وترصدهم أي تترقب أوان ورودهم إليها، وفي ذلك يقول عزّ وجل :

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ
بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ الفرقان: ١١ – ١٢

وكأنها بهذا الوصف حالها كحال الأسد الذي يتأهب للانقضاض على الفريسة. فهي، أي جهنم، تعرف المجرمين بسيماهم قبل أن يَرِدُوها.

﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾ النبأ: ٢٢

للطاغين: جمع طاغ وهو الذي تجاوز الحدّ في المعصية، أو بالغ فيها. واختار جلّ شأنه هذه الكلمة تحديداً، لأنها لاتقف عند حدِّ الدلالة على الكافرين والمشركين، بل تتوجه أيضاً للدلالة على العصاة من أهل الإسلام، الذين تجاوزوا الحدّ في المعصية.

مآباً : من آبٍ يؤوبٍ بمعنى رجع. والناس جميعاً سيؤوبون إلى الله، ولكنه ليس مآباً واحداً، بل مآبان ، جهنم أو الجنة فذكر في هذه الآية السابقة مآب الخارجين عن أمر الله (**الطاغين**).

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ النبأ: ٢٣

إن الإنسان حيثما كان لابد له من أن يكون في إطار زمان ومكان، فذكر وفي الآية السابقة المكان (**جهنم**) وفي هذه الآية ذكر الزمان : (**أحقاباً**) وهي كلمة لها حدٌّ زمنيٌ معلوم، أضاف إليه أهل التفسير بعداً زمنياً آخر لم يستندوا فيه على قرآن أو حديث أو لغة.

ففي اللغة مفرد (**أحقاب**) حُقْب، ويبلغ الحقب ثمانين سنة من سنيّ الدنيا، فاجتهد أهل التفسير وأجروا ذلك الحقب فيما يلي:

* الحقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، اليوم منها ألف سنةٍ من عدد الدنيا.

2- واختار آخرون إبقاء (**أحقاباً**) في حدها الزمني الدنيوي، إلا أنهم قيَّدوها بقولهم : لابثين فيها أحقاب الآخرة التي لانهاية لها....

والذي قادهم إلى كل ذلك وقوفهم بكلمة (**الطاغين**) عند حدّ الدلالة على الكفّار والمشركين، وفيما يلي تفصيل ما أرانا الله إياه في هذه الآية:

الحِقْبة من الدهر: مدة لا وقت لها. وقيل : هي السنة.

الحُقْب والحُقُب: ثمانون سنة، وقيل أمثر من ذلك، والجمع : أحقاب

وقيل هو الدهر ، وقيل هو السنة.

هذا بعض ما ورد في لسان العرب في معنى (**حقب**) وهي أقوال معتمدة، واعتمادها من شأنه أن يُرجِّح كفة المعنى الأول وهو: مدّة لا وقت لها، بمعنى أنها ليست وحدة زمنية معلومة المقدار، فقد تكون سنة أو أقل من ذلك، وقد تكون ثمانين أو أكثر أو أقل ....

وهذا الوجه هو الدلالي الوحيد الذي يتناغم مع دلالة الطاغين، ودلالة (**لابثين**) ، وتفصيل ذلك فيما يلي:

* الطاغي قد يكون كافراً أو مشركاً أو عاصياً، فإذا كان كافراً أو مشركاً توجّهت دلالة الأحقاب إلى الزمن المطلق، وهو الخلود في النار، الذي لا يعلم حدّه أحد الإ الله، وإذا كان الطاغي عاصياً فإن أحقابه قد تطول وقد تقصر تبعاً لحجم الطغيان في المعصية...

* وفي الرسم القرآني رسمت كلمة لابثين على الصورة التالية: (**لابثين**) فهي على ذلك قراءاتان، فإن قُرئت (**لابثين**) كانت جمعاً لاسم الفاعل: لابث ، وإن قُرئت (**لبثين**) كانت جمعاً لصيغة المبالغة: لَبِثٌ وفي دوران الكلمة حول هاتين القراءتين موافقة لما أوردناه من دلالة (**أحقاباً**) فالمرء إذا لَبِث في مكان قيل له لابث، فإذا كان لُبْثه طويلاً قيل: لَبِث. ومن المعلوم أن الوصف باسم الفاعل أو بصيغة المبالغة ليس له مقياس حسابي يبيّن حدّ ذلك الوصف، أي أن الوصف بأي منهما ينساق إلى درجاتٍ متعدّدة من مقدار الصفة، وهو ما يتطابق مع دلالة (**أحقاباً**) تطابقاً تاماً .

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ النبأ: ٢٤ ــ ٢٥

الضمير في قوله (**فيها**) ذُكِر أنه يعود على الأحقاب، لأنها أُقرب مذكور إلى الضمير، وليس في ذلك ما يمنع رجوع الضمير إلى (**جهنم**) لأن الزمان أبداً مقرون بالمكان، وهذه الأحقاب التي لا يذوق فيها الطاغون برداً ولا شراباً محلها (**جهنّم**).

وقد جرى الاستثناء في الآيتين على نسق متساوي الأطراف:

لا يذوقون فيها **بَرْدَاً** **ولا شَرَاباً**

إلّا

حميماً **وغسّاقاً**

لم يختلف أهل التفسير في أن الاستثناء في الخطر الثاني استثناء متّصل، بمعنى أن الغسّاق شراب من الأشربة تم استثناؤه من النفي في قوله تعالى (**ولا شراباً**) . والغسّاق صديد أهل النار وقيحهم، فهو بذلك سائل، يُشْرب ولا يُؤْكل.

أما الاستثناء في الخط الأول فقد قيل فيه إنه استثناء منقطع، بمعنى أن المستثنى (**حميماً**) ليس من (**برداً**) وذلك على وجهين :

الأول: قال بعضهم إن المقصود بالبرد النوم، وهو معنى وارد في اللسان العربي، ومع ذلك فهو قول مردود، لأن الله أراد بالكلمتين: (**برداً، شراباً**) استقصاء كل ما يجده للطغاة من عذاب

في جهنم، فالبرد أثر من آثار الوسط المحيط، وتأثيره على الإنسان يأتي من الخارج، أما الشراب فيشعر به الإنسان من الداخل، وقد تمّ تقديم ما يدل على العذاب الخارجي (**برداً**) لآنه الوجه الأوسع لعذاب النار، **قال تعالى:**

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾النساء: ٥٦

أي أن تأويل كلمة (**برداً**) بالنوم يتقاصر عن استيفاء دلالة العذاب في النار

الثاني: ومن توجَّه بدلالة (**برداً**) إلى البرودة أوجب أن يكون الاستثناء منقطعاً، لأن الحميم الذي هو الماء الحار لا يمت للبرودة بصلة **فهل ذلك كذلك .؟**

الجواب على ذلك يستدعي تفصيلاً كافياً:

إن دلالة البرد على البرودة تنساق إلى كل ما من شأنه أن يحقق للإنسان معنى الاستبراد من الحرارة، ومن ذلك الظلّ الذي يهرب إليه الإنسان من حرارة الشمس، **قال تعالى:**

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾فاطر: ١٩ ــ ٢١

هذا في الحياة الدنيا، أما الجنة فقد ذُكرت معها نعمة الظل، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾يس: ٥٥ ــ ٥٦

فمع الظل تكون النسمة الباردة، ولذلك هو مفردة من مفردات البرد .

فهل هناك من ظلٍّ للطغاة في الجحيم ؟

الجواب: نعم، ودليل ذلك **قوله تعالى:**

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ الواقعة: ٤١ - ٤٤

(**ظل من يحموم**) من دُخان أسود .

(**لا بارد ولا كريم**) نفي لصفتي الظل عنه.

فالظل في لفظه وفي معناه يحمل معنى البرودة، وهذه البرودة (**برداً**) جاء الاستثناء منها (**إلا حميماً**) والحميم لفظ يسري على كل ما هو حارّ، الماء والهواء، فأفادت هذه الكلمة في هذا السياق وقوع الأمرين على الطغاة.

وبهذا التفصيل يتبين لنا ويتأكد أن الاستثناء في الموقعين استثناء متّصل.

وقد ربط جل شأنه هذا العذاب بفعل الذوق (**لا يذوقون**) ومن المعلوم أن حاسة الذوق مرتبطة باللسان، وهو ما يوافق دلالة (**ولا شراباً**) **فهل يسري فعل الذوق على الجلد** ؟

قُرن الذوق باللسان لأنه الجزء الذي يتعرَّف به الإنسان على الطُّعوم: الحلو والمالح والحامض والمرّ، والجلد لايملك صلاحية التعرُّف على هذه الطعوم، ولذلك لا يُسْتند إليه الذوق إلا من قبيل المجاز، هذا ما رآه أهل البيان. ولكن مهلاً، فاللسان يذوق أشياء أخرى غير تلك الطعوم، فهو يذوق ما كان حاراً أو بارداً من الأطعمة، ومن هذا الوجه انا أنْ نقول إن الجلد يذوق حرّ النار حقيقةً لا مجازاً .

﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ النبأ: ٢٦

أي أن ما يجده الطّاغون من العذاب في جهنم هو الجزاء الذي يستحقّونه على ما قدّموه من طغيان في الحياة الدنيا. ونلاحظ أن الله تعالى لم يصف العذاب في جهنم بصفة الخلود، بل اختار (**وفاقاً**) وفي ذلك التفات إلى دلالة (**الطاغين**) التي تتوجّه إلى الكافرين والمشركين وإلى العصاة من أهل الدين وما في هذا العصيان من درجات، ولا يليق بهذا المستوى الدلالي سوى

كلمة (**وفاقاً**) فإن كان الطاغي كافراً أو مشركاً كان العذاب الموافق له الخلود في النار، وإن كان من أهل الدين العصاة كان عذابه موافقاً لمعصيته، فإن قضى ما عليه أخرجه الله من النار.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾ النبأ: ٢٧

أي : لا يخافون محاسبة الله إيَّاهم، أوْلم يؤمنوا بالبعث ليرجوا حساباً .

هذا ما ذكره النسفي، وكذلك فعل القرطبي وابن كثير، رحمهم الله. فمرّةً جعلوا الرجاء بمعنى الخوف على غير ما هو شائع في الاستخدام اللغوي، ومرّة أخرى اضطروا إلى تقدير كلام آخر، ليصلوا به إلى معنى الرجاء، وذلك بقولهم : لم يؤمنوا بالبعث ليرجوا حساباً، وهو عندي القول الأقرب، إلا أن صياغته قَصُرت عن بيان دلالة نفي الرجاء عن هؤلاء الطاغين، وفيما يلي بيان لهذه الدِّلالة.

من الثابت أن من يؤمن باليوم الآخر لا تجده إلا متقلباً بين أمرين:

الخوف من أن من يعذبه الله بذنوبه، والرجاء في أن يكون ممّن يشملهم الله برحمة الغفران يوم القيامة، والأمران كلاهما مدار الحساب يوم القيامة، حساب يُفْضي إلى النار، وحساب يفضي إلى الغفران، وهو المقصود في الآية، فكل مسلم يرجو أن يفضي موقف حسابه يوم القيامة إلى غفران ذنوبه، والطاغون أمام ذلك صفتان : كافرٌ ومؤمن، فأما الكافر فلا يحمل أدنى رجاء لذلك الحساب، لأنه خالٍ من الإيمان بالله وبيوم الفصل.

وأما المؤمن فإنّه مُقِر باليوم الآخر، ويرجو أن يكون ممّن يحاسبهم الله حساباً يسيراً، لينقلب إلى أهله مسروراً، ولكن الإيمان يجب أن يكون معزّزاً بالعمل الصالح، أي أنه إذا كان يرجو ذلك الحساب الذي يكون معه الغفران وجب عليه أن تتعلق بأسبابه، وهي الطاعات والقربات، ليكون عمله مصدّقا لرجائه . فإذا لم يتعلّق بهذا الأسباب كان حاله كحال من لا يرجوا حساباً، بل هو لا يرجو حساباً، وهو ما جعله طاغياً أي متجاوزاً للحدِّ في العصيان.

﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ النبأ: ٢٨

عطف المولى عز وجل هذه الآية على الآية السابقة بحرف العطف الواو الذي يقتضي المغايرة من جهة والاشتراك من جهة أخرى، أما المغايرة فهي في أن الآية السابقة تشير إلى الرجاء الذي لا ينبثق إلا من قلب قد انطوى على الإيمان بالله واليوم الآخر، أما هذه الآية فتذكر الوجه التطبيقي لذلك الإيمان، وهي التشريعات التي تنطوي عليها الآيات

أما الاشتراك بين الآيتين فيبرز من خلال الارتباط الحتميّ بين دلالتيهما، فعلى قَدْرِ عدم رجاء الآخرة يكون التكذيب بالآيات . وبلفظٍ آخر: التكذيب بالآيات شاهد ودليل على عدم رجاء الحساب، فليس لأحدهما وجود بدون الآخر.

والفعل (**كذب**) له مصدران : تكذيب وكِذّاب بكسر الكاف، واختار جل شأنه المصدر الثاني، لدخول التضعيف في بنيته، وهو ما من شأنه أن يفيد المبالغة في الكذب، والتي تنسجم مع دلالة الطغيان، وهو تجاوز الحد ففي المعصية، ومما يشير إلى هذا الوجه الدلالي قول ﷺ:

(وإنّ الكذبَ يَهْدي إلى الفُجُورَ، وإنّ الفُجُورَ يُهْدي إلى النّار. وإن الدّجلَ لَيَكْذبُ حتى يُكْتَبَ عند الله كَذّاباً) رواه البخاري ومسلم .

﴿ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ النبأ: ٢٩

الإحصاء : الإحاطة، وهذه الإحاطة مدوّنة في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة. ووجه انسجام هذا المعنى مع السياق لفت أنظار العباد إلى ما يفعلون ويقولون لعلهم يَسْلَمُون من أن يكونوا من طائفة الطاغين، **قال تعالى:**

﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ الكهف: ٤٩

﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ النبأ: ٣٠

جاءت الفاء لتبيّن أن ما بعدها مترتّب على ما قبلها، أو أن ما قبلها سَبَبٌ لما بعدها، فهم لن يقال لهم إلا : (**ذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً**) بسبب أنهم (**كانوا لا يرْجون حِسَاباً . وكذبوا بآياتنا كِذّاباً**) .

* وقد اعتمد جل شأنه في هذه الآية ضمير الخطاب بعد أن اعتمد في الآيات السابقة ضمير الغيبة، وهو لون من ألوان البلاغة يُعْرف باسم الالتفات. والغاية منه الانتقال بالكلام من الخبر إلى الإنشاء، حيث أن الفرق بينهما أن الخبر كلام يحتمل الصدق والكذب، والإنشاء لا يحتمل إلا الصدق . وكلام الله تعالى كله صدق، فكان مراده من هذه السمة البيانية في التعبير الآدمي أن يعلم الطغاة أن دخولهم إلى النار وبقائهم فيه أمر يقينيّ، وليس هناك أدنى احتمال في انصراف العذاب عنهم، مثلما هو الإ سلوب الإنشائي كلام لا يحمل أدنى احتمال للكذب .

ومما يزيد هذه الحقيقة توثيقاً استخدام أسلوب القصر : (**النفي + إلا**) والذي أفاد قصر الزيادة على العذاب، لينقطع بذلك كل احتمال أو أملٍ لدى الطغاة في أن يزيدهم الله ما قد يكون خيراً لهم.

* قوله تعالى: (**فلن نزيدكم إلا عذاباً**) يحمل المعنى التالي:

كل زيادةٍ محجوبة عنكم إلا زيادة العذاب .

فهل هناك زيادات أخرى لأصحاب النار غير زيادة العذاب ؟

النار ليس فيها إلا العذاب، ولذلك توجّه أهل التفسير إلى تأويل الزيادة بتبديل جلود الطغاة في النار، وزيادة اشتعال النار كلما خبت جذوتها. إلا أن طبيعة صياغة الجملة في الآية لتقطع كل أملٍ لديهم في زيادة أخرى غير زيادة العذاب، فجاءت هذه **فما هو وجه تلك الزيادة التي كان الطغاة يرجونها ؟**

إن يوم القيامة يُفضي إلى أمرين اثنين لا ثالث لهما: النعيم أو العذاب، فأما الأول فمكانه هو الجنة، والثاني مكانه جهنم، فالمكان ليس واحداً، أمّا زمانها فواحد، وهو الخلود . فإذا جئنا إلى أهل الجنة وجدناهم يتقلبون في زيادات متتابعة من النعيم، **فقال تعالى:**

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ البقرة: ٢٥

فالتجدّد والابتكار المتوالي هو سمة الزيادة، وذلك من وجهين:

الأول: أن الثمرة تأتيهم على نفس الصورة التي كانت عليها في اليوم السابق، ولكنهم إذا أكلوها وجدوا لها طعماً أطيب وألذ مما كانت عليه في اليوم السابق، وهو ما يسري على سوى ذلك من نعيم الجنة.

الثاني : الزمان زمان متجدّد، وهو ما تناسبه كلمة (**أحقاباً**) التي تسري دلالتها على أهل النار وعلى أهل الجنة، لأن الزمن يوم القيامة زمن واحد، وكلما انقضى حقب تلاه حقب آخر، وهو ما يجسِّد معنى الزيادة في الزمان . فإذا انقضى حقب على أهل النار تمنوا أن يكون الحقب التالي خيراً لهم بأن يُصرف عنهم العذاب، ليكونوا من أهل النعيم، وهو ما يُجْريه الرحمن الرحيم على طوائف عديدة من أهل النار، يمكثون زمناً في النار، ثم يقضي الله بخروجهم، لتكون الزيادة في الزمن، والمترتّبة على كلمة (**أحقاباً**) خيراً لهم. وهذا هو معنى الزيادة التي يرجوها الطاغون وهم في النار، وهنا يأتي الخطاب الإلهي: (**فذوقوا فلن نزيدكم إلا عَذَاباً**). وهم، حتماً، الكافرون، ومن قضى الله بخلودهم في النار من غير الكافرين.

2- مآل المتقين

بعد أن ذكر المولى عز وجل مآل الطاغين يوم الفصل أردف ذلك بذكر مآل المتقين، قال تعالى

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ النبأ: ٣١ ــ ٣٦

مع الطاغين ذكر الله تعالى جهنم، ومع المتقين لم يذكر كلمة الجنة، ولو قد فعل لكان ذلك مناسباً ، إلا أنه سبحانه عدل عن ذكر لفظ الجنة إلى كلمة (**مفازاً**) **فماذا في هذا الاختيار من الدلالة** ؟

أطلق العرب لفظ المفازة على الصحراء إذا قلّ ماؤها، وذلك من قبيل التفاؤل بالنجاة من الهلاك فيها، ومن ذلك قولهم للملدوغ (سليم) يرجون بذلك سلامته. ومن هذا الوجه اخْتار جل شأنه كلمة (مفازاً) **فما مسوّغ استخدام هذه الكلمة مع المتقين ؟**

قال الله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾آل عمران: ١٨٥

فالكُلُّ سَيُعرض على النار، وليس لأحدٍ أن يتزحزح عن النار إلا برحمةٍ من الله تعالى، قال ﷺ (لن يُدْخِلَ أحَداً عَمَلُه الجنةَ) قالوا: ولا أنت يارسول الله ؟ قال (ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدني الله بفضْلٍ ورحمةٍ ..) رواه البخاري ومسلم.

ومستند هذه الحقيقة قوله ﷺ :

(**كلُّ ابن خطّاءٌ، وخير الخطّائين التوابون**).

فلا يدري الإنسان أيكون ممّن غفر الله له ماقترفت يداه في الحياة الدنيا، أم يكون من المعذّبين، وهو في ذلك حالة كحال عابر الصحراء، لا يدري أيفوز باجتيازها سالماً أم أنها ستقضي عليه بحرِّها ونُدْرة مائها، ولذلك قيل للصحراء (**مفازة**) تفاؤلاً بعبورها، وقيل: (**إن للمتقين مفازاً**) بشرى للمتقين باجتياز الصراط المنصوب على ظهراني جهنم

وفي اللغة يُقال: فاز به فوْزاً ومفازاً ومفازةً، وقد اختار جل شأنه المصدر الثاني، لأنه يحمل من الدلالة مالا يحمله المصدر الأول، فهو، فوق دلالته على المصدر، يدلّ على اسم المكان، واسم

المكان هو ذلك المعبر المنصوب على ظهر النار، وقد بيَّنا وجه الدلالة فيْه. أما الدلالة على المصدر فتتوجَّه إلى الجنة وما فيهْا من نعيم، إذ هي علامة فوزهم بجائزة التقوى.

﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾ النبأ: ٣٢

هذه الآية وما بعدها تفسير للفوز، فهي بدل من دلالة المصدر، لا من دلالة اسم المكان. والحدائق جمع حديقة، وهي البستان الحافل بكلّ ما يسر العين والأذن واللسان، فالعين تبتّهج بمرأى الخضرة والأطيار والفاكهة بألوانها المتعددة، بل والأنهار العديدة التي تنساب خلال تلك الحدائق، واللسان يستلذّ بما يصل إليه ممّا تشتمل عليه تلك الحدائق .

والأعناب صنف من الأصناف التي تشتمل عليها تلك الحدائق، فكان في تخصيصها بالذكر من بين تلك الأصناف إشارة إلى اختصاصها بمقام عن سواها ممّا اشتملت عليه الحدائق .

﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣﴾ النبأ: ٣٣

كواعب : جمع كاعب وهي الناهد، يُقال : كعبت الجارية تَكْعُب كُعوباً وكعَّبت تكْعيباً ونهدت تَنْهَد نُهوداً.

أتراب : في تِرْب، أي هنّ على ميلاد واحد في الاستواء وسنٍّ واحدة.

فماذا في وصف النساء بهاتين الصفتين من بيانٍ لمستوى النعمة ؟

كواعب: جاء في البيان اللغوي : كعبت الجارية، وكلمة الجارية تعني الفتاة التي لم تبلغ بَعْدُ سنّ الحلم، فإذا قيل فيْها: كعبتُ، كان ذلك للدلالة على أنها ثديها قد اكتمل نموُّه واستدار. فكان في وصف نساء الجنة بأنهن كواعب إشارة إلى أنهّن في سَمْتِ أوّل الشباب، إذ تكون الصفات الأنثوية في أكمل وأنضر وأبكر حالاتها، وإثبات صفة الكواعب النساء الجنة يستوجب تلبسهن بهذه الصفة أبد الآبدين، لسببين :

الأول: أن وصفهن بصفة (**كواعب**) قضاء قضاه ربُّ العالمين. **والثاني:** أن مرور الزمن في الجنة لا يؤثر في الأبدان مثلما هو الحال في الحياة الدنيا، فالجنة شباب دائم، لا مَرضَ معه و لا هرم ولا موت، وكل ذلك وردت الإشارة إليه في وحي السماء.

ومع هذه الصفة وردت صفات أخرى لنساء الجنة، فهنّ بِيضٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون، مشتريات بحمرة كأنهن الياقوت والمرجان، وهنّ أبكار أبداً، تعود إليهنّ بكارتهن من جديد بعد قيام أزواجهنّ عنهنّ ومستندنا في هذا المعنى أن وصفهنّ في كتاب الله بأنّهن أبكار يستوجب دوام تلبّسهنّ بهذه الصفة.

أتراباً: نظر أهل التفسير إلى دلالتها إلى دلالتها وفق ما استُخدمت له في واقع الإنسان في الحياة الدنيا. ومن المعلوم أن الدلالات الدنيوية أحقر وأهون من أن يكون المستوى الدلالي للكلمة في الجنة، ومن ذلك دلالة الخمر في الدنيا وفي الجنة، والأمثلة على ذلك عديدة.

وعلى ذلك فإن دلالة الأتراب على من كان ميلادهم واحداً، وبالتالي كونهم في سنٍّ واحدة، ليست دلالة مؤهَّلة لأنْ تكون هي فقط المستوى الدِّلالي الحاصل في الجنة. بل يجب أن تتوجه إلى آفاق واسعة تتواءم مع ما يليق بالجنة من تعاظم النعمة. فالإنسان في الجنة له أكثر من زوجة، وكلهن أتراب، أي متساويات، ليس فقط في السن، بل وفي الجمال، والحكمة من تساويهنّ في الجمال أن لا يكابد المؤمن مشقة ميل القلب إلى واحدة دون الأخرى. ولا أعني بذلك أنهن في صورة واحدة، بل هنّ في صور عديدة، وكلها صور جميلة، قد جعلهنّ الله أتراباً في ذلك الجمال، فلا يؤثر جمال إحداهن على رغبتك في جمال الأخرى. وهذا المعنى له مثلٌ في واقع الإنسان الدنيوي، إذ قد يعرض له شيئان لهما وَقْعٌ طيب في نفسه، فلا يجد في نفسه ترجيحاً لأحدهما على الآخر...

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ النبأ: ٣٤

الكأس : هي الزجاجة مادام فيها شراب.

دهاقاً: مترعة مملوءة، يُقال: أدْهقتُ الكأس أي ملأتها.

ولم تحدِّد الآية ما في الكأس من شراب، لأن أشربه أهل الجنة عديدة، ماء غير آسن، وأنهار من خمر، وأنهار من لبن، وأنهار من عسل، وغير ذلك مما لا يعلمه أحد إلا الله .

ولم يُرِدْ جل شأنه كأساً بعينها، إنما أراد جنس الكأس، فهي أكؤس عديدة، لا تنقضي لذتها، ولا تنقطع عن أهل الجنة أبد الآبدين.

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ ﴾ النبأ: ٣٥

اللغو: السقط وما لا يُعْتدّ به من كلامٍ وغيْره، ولا يُحْصل منه على فائدة ولا نفع .

كذاباً: كنت قد اجتهدت في بيان هذه الكلمة عند ورودها في سياق بيان مآل الطاغين. وهاهو جل شأنه يذكرها مرّة أخرى لبيان سلامة أسماع أهل الجنة من أن تسمع كذباً. وفي موضع آخر من كتاب الله تمّ استبدال كلمة (**كِذّاباً**) بكلمة (**تأثيماً**) وهو **قوله تعالى:**

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ الواقعة: ٢٥

تأثيماً: مصدر أثَّمته، أي جعلته يقترف إثماً، أو سمعت منه ما دعاني إلى وصفه بالإثم.

فهل هناك من علاقة بين الكلمتين: كِذّاباً وتأثيماً ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال أشير إلى أن الآية السابقة من سورة الواقعة جاء بعدها مباشرة **قوله تعالى :**

﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الواقعة: ٢٦

وبذلك يتبين لنا أن ما يصل إلى الأذن من كلام إنما هو ثلاثة أنواع: لغو وتأثيم (**كِذّاباً**) وسلام، وهذه الثلاثة هي مدار ما يكون بين البشر في الحياة الدنيا، فاللغو هو الكلام الذي لا طائل من ورائه، والسَّلام هو كل كلام لا يتأذى منه وبه الآخرون، **قال تعالى:**

﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ البقرة: ٨٣

وقال ﷺ:

(المسلمً من سلم المسلمون من لسانه ويده...)

فالناس في الحياة الدنيا يتجاورون ويتزاورون ويتبايعون، وهم في كلّ ذلك إما محسنون أو مسيئون فيما يتبادلونه من كلامٍ، فإن كانوا محسنين كان كلامهم من النوع الذي وصفه الله بكلمة (**سلاماً**) وإن كانوا مسيئين كان كلامهم (**تأثيماً**) أي إثما أو سبباً من أسباب الوقوع في الإثم لمن سمعه.

فأعلن جل شأنه أن أهل الجنة لا يسمعون لَغْواً ولا تأثيما، لأن الله جرَّدَهم من الأسباب الداعية إلى ذلك، فكانوا إخواناً على سردٍ متقابلين .فهل تتساوى كلمة (**كِذّاباً**) مع كلمة (**تأثيماً**) في هذه الدلالة ؟

* لا يختلف اثنان على أن الكذب إثم من الآثام، بل هو من أخطر الآثام، لقول رسول الله ﷺ (...إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كَذَّاباً) رواه البخاري ومسلم.

فكانت علاقة (**كِذاباً**) بكلمة (**تأثيماً**) علاقة الخاص بالعام. لأن الكلام الآثم له وجوه عديدة، والكذب إحداها، فخصه جل شأنه بالذكر إشارة إلى خطورته على الإنسان في دنياه وآخرته.

* والإنسان في دنياه لا يلجأ إلى الكذب إلا لأحد أمرين : جلب منفعةٍ أو دفع مضرّة، وهو ما يقود إلى قراءتين :

الأولى: أن جلب المنفعة ودفع المضرّة أمران يستغرقان كل أحوال الإنسان، فإذا اعتمد الإنسان الكذب فيهما كان بذلك مستغرقاً في الآثم الذي يتردّد على اسماع الذين يتعاملون معه، وبذلك تتعادل كلمة (**كِذّاباً**) مع كلمة (**تأثيماً**).

الثانية : سلامة الأسماع من سماع الكذب يشير إلى أن السبب الذي يدعو إلى الكذب، وهو جلب المنفعة أو دفع المضرّة، ليس موجوداً في الجنة، لأن الله تعالى أغناهم بعظم النعمة عن التطلع إلى ما في أيدي الآخرين، وبالأمن والسلامة في أنفسهم وفيما يملكون عن أن يخشوا ضرّاً، ولهذا فإنه لا موقع للكذب (**كِذّاباً**) الذي هو عين الإثم (**تأثيماً**).

﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ النبأ: ٣٦

قال أهل التفسير : (**جزاء**) نصب على المصدر، أي جزاهم جزاءً، (**عطاء**) بدل من المصدر الأول، لأن أعطاهم وجزاهم واحد. (**حساباً**) أي كثيراً، إلا أنني أرى أن الأمر أوسع من ذلك وأجلّ، وفيما يلي تفصيل ذلك وبيانه:

عقَّب جل شأنه على ما ذكره مما أعدّه للمتقين بثلاث كلمات : **جزاءً** ، **عطاء**، **حساباً** ، فكان لكل كلمة مستوى من مستويات الدلالة على ما يجده أهل الجنة من نعيم :

* **جزاءً**: الجزاء في اللغة يكون مُكَافئاً للعمل، فكانت النار جزاءً لمن كان من أهل الطغيان في الحياة الدنيا، وكانت الجنة جزاءً للمتقين.

* **عطاءً**: ولو كان الأمر موقوفاً عند حدِّ الجزاء اما استحق الإنسان دخول الجنة بتقواه، قال ﷺ (لن يُدْخِلَ أحداً عملُه الجنة) قالوا: ولا أنت يارسول الله ؟ قال (ولا أنا إلا أن يتغَّمدني الله بفضل ورحمة...) . رواه البخاري ومسلم.

فلو كان الجزاء على قدر العمل لكان مقدار منه ورحمة، أن يكون النعيم يوم القيامة أهون من أن يُذكر، ولكن الله قضى، بفضل ورحمة، أن يكون النعيم في الجنة فوق حد الوصف والإمكان، حتى أن الدنيا بكل ما فيها من نعيم لا تعدل جناح بعوضة إذا قيست بنعيم الجنة . وهو نعيم لم يقيِّده جل شأنه بزمانٍ ينتهي عنده، فهو خالد ومتنعِّم خالد.

وكل ذلك إنما هو من فيض العطاء الذي يأتي ابتداء لا جزاءً ولذلك ذكر المولى عز وجل (عطاء) بعد كلمة (جزاءً) .

* حساباً : ذُكرت عدة أقوال في توجيه هذه الكلمة، وأَمْثَلُ ما قيل هو قول مجاهد:

حساباً لما عملوا، فالحساب بمعنى العدّ، أي بقدر ما وجب له في وعد الرب، فإنه وعد للحسنة عشراً، ووعد لقوم بسبعمائة ضعف، وقد وعد لقوم جزاء لانهاية له ولا مقدار، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ الزمر: ١٠

ومع ذلك فإني لن اعتمد ممّا قال إلا قوله: الحساب بمعنى العدّ، ولن أقف به عند الوجه الذي بينه، بل سأمضي به إلى القول بأن المتقين الموعودين بالجنة ليسوا في منزلة واحدة، بل في منازل عديدة تبلغ مئة درجة، ولهذا فإن كلمة (**حساباً**) جاءت لتبين أن المقامات المنبثقة عن : (**جزاءً... عطاءً**) مقامات محسوبة حساباً دقيقاً، وذلك تبعاً لمقدار التقوى.

* وكل ذلك مُقيَّد بكلمة (**ربِّك**) وقد كان بالإمكان اختيار لفظ الجلالة إلا أن السياق يستدعي لفظاً موافقاً له، وهو لفظ الربوبية الذي يَحْمِلُ دلالة التفات الله إلى عبادة التفات رأفةٍ ورحمةٍ ورعاية ومحبة...

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ النبأ: ٣٧

* ذكر المولى عز وجل كلمة (**رب**) مرتين، فأضاف إليها في المرة الأول ضمير الخطاب (**ربك**) وهو رسول الله ﷺ ، وأضاف إليه في المرة الثانية السموات والأرض وما بينهما، وفي بيان لمقام رسول الله ﷺ ، إذ خصّه الله وحده بإضافةٍ إلى لفظ الربوبية، بل وقدّم هذه الإضافة على إضافة السمواتِ والأرْض. والتقديم يفيد علوّ مقام المقدَّم على المقدّم عليه.

* ولأن الربوبية رعاية وقيام على معاش المربوب اختار جل شأنه اسمه (**الرحمن**) أي أنه يُجْري ربوبيته على الخلق في الحياة الدنيا في إطار دلالة اسمه (**الرحمن**) التي تتوجه إلى المسلمين والكافرين من الإنس والجن، فمن رحمة الله بالكافر في الحياة الدنيا أن الله يعافيه ويرزقه برغم كفره، ويمهله لعله يرجع عن كفره ويؤمن بالله وحده.

* (**لا يملكون منه خطاباً**) هذا الجزء من الآية متصل بالآية التالية، أي لا يملكون منه خطاباً يوم يقوم... الآية . والمراد بهذا الجزء أن الخلق يوم الفصل لا يملكون حقاً في أن يُخاطبهم ربهم، وقد ذكر البعض أن المعنى هو: لا يملكون أن يخاطِبوا ربهم، ولو كان هذا هو المرَاد لقيل: لا يملكون له خطاباً . ولكن الله قال (**منه**) أي لا يأتيهم خطابٌ منه سبحانه. وفي ذلك قال رسول الله ﷺ :

(أنا سيدُ النّاس يومَ القيامة، وهلْ تَدْرون بِمَ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صَعيدٍ واحدٍ، فيُسْمعهَم الداعي وينفذهم البصرُ، وتدنوا الشمْسُ، فيبلغ الناسُ من الغمِّ والكرب مالا يطيقون ولا يَحْتملون، فيقول بعضُ الناسِ لبعضٍ: ألا ترون ما أنتم فيه، ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعضُ الناس لِبَعْض : ائتوا آدمَ، فيأتون آدم فيقولون: يا آدمُ، أنت أبونا أبو البشر ، خَلَقَك الله بيده، ونفخَ فيك من رُوْحه، وأَمَرَ الملائكةَ فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى مانحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدمُ: إن ربي قد غَضِب اليومَ غَضَباً لم يغضبْ قبله مثلّه، ولنْ يغضبَ بْعدَه مثله، وإنه نهائي عن الشجرة فعَصَيْته، نفسي نفسي...) رواه البخاري ومسلم.

فبسبب غَضَبه الشديد سبحانه ترك الخلقَ في موقف الحشر، فلم يخاطبهم، وأيضاً بسبب غضبه الشديد خشى الأنبياءُ المقرّبون أن يخاطبوه في غضبه. وشاهدُنا هو الجزء الأول من هذا الكلام، وهو أن لا أحد من الخلق يملك حق أن يخاطبه الله .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ النبأ: ٣٨

يوم : ظرف زمان لقوله سبحانه من الآية السابقة (**لا يملكون منه خطاباً**) والمراد به يوم الفصل، وذكر جل شأنه من أحواله:

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا

الروح: هو جبريل عليه السلام عند جمهور، ومستند ذلك قوله تعالى:

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ الشعراء: ١٩٣ ــ ١٩٤

والروح الأمين هو جبريل عليه السَّلام الذي يتنزّلُ بالوحي على الأنبياء . والأمين صفة، وبدونها نقول : نزل به الروح، أي جبريل عليه السلام

وقوله (**صفاً**) لا يُراد به الوحدة ، أي صفا واحداً، بل يُرَادُ به الحال، فهم يقومون لله صفوفاً متوالية، **قال تعالى:**

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ ﴾ الفجر: ٢٢

وقوله (**لا يتكلمون**) تَبَعٌ لقوله (**لا يَمْلكون** ...) جمع الله تعالى بهما وهي الكلام، كلامه سبحانه وكلام العباد، وكنَتُ قد بيَّنْت قبْل قليلٍ أن قوله تعالى: (**لا يملكون منه خطاباً**) المراد منه أنه لا يكلمهم، وقد ورد في القرآن وفي الحديث النبوي استخدام لفظ (**لا يكلِّمهم**) للدلالة على حجب الرحمة عمَّن لا يكلّمهم الله، وكذلك هم الناس يوم القيامة، لا يملكون من الله خطاباً، أي لا يكلمهم الله

امَّا قوله (**لا يتكلّمون**) فلا يعني به نفي صفة الكلام عنهم، بل هم يتكلَّمون، وشواهد ذلك عديدة في الكتاب وفي الحديث، ومن ذلك ما ذكرناه قبل قليل من حديث الشفاعة. ولذلك فإن الدلالة تتوجَّه إلى نفي قبول كلام الناس في محشرهم .إلا أنه ليس نفياً مطلقاً، لأن الله استثنى من ذلك من توفّر فيه شرطان:

إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا

الشرط الأول: أذن له الرحمن

فمن هو المأذون له ؟ وماهي هيئة الإذن ؟

بالنظر في حديث الشفاعة المذكور قبل قليل نلاحظ أن الناس لم تُجْدِ توسّلاتهم لله شيئاً، فلجأوا ساعتئذ إلى أولى العزم من الرسل، لما لهم من شرف المقام عند ربِّ العالمين . وكلٌّ منهم كان مؤهلاً لأن يتكلَّم مع ربِّ العالمين مستشفعاً للناس، ومع ذلك كان كلٌّ منهم يُوجِّه الناس إلى سواه من أولي العزم، وهم في ذلك لا يفعلون أمراً كلِّفوا به وهم مدركون له، إنما يفعلونه وفقاً لما يجدونه من رغبته في نفوسهم، أي أن الله تعالى ألقى في قلوبهم الإحجام عن قبول ما يدعوهم إليه الناس وقد قال ﷺ .

(ما منْ قلْبٍ إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه).

ولذلك كان من دعائه.

(اللهم يا مصرّف القلوب، صرِّف قلوبنا على طاعتك).

ونفس النسق يمضي على محمد ﷺ في ذلك الموقف، إلا أنه ليس على الوجه الذي كان مع سواه من الأنبياء، بمعنى أنه سيجد في نفسه قبولاً لدعوة الناس، ولذلك ورد في الحديث أن الناس إذا وصل بهم المطاف إلى محمد ﷺ وقالوا:

(يا محمد، أنت رسول الله وخاتم النبيين، وغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربي...) البخاري ومسلم.

فكان مألقاه الله في قلوب عبده ورسوله من قَبُولٍ لما دعاه إليه الناس إذناً منه سبحانه لمحمد ﷺ ليتكلّم تلك الكلمات التي يتلقاّها بالقبول .

الشرط الثاني : وقال صواباً

القول الصواب هو القول السديد الذي يتلقاه الله بالقبول، ووصف المولى عز وجل ذلك القول الصواب بأنه القول المرضيّ، قال تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ طه: ١٠٩

فما هو حدّ ذلك القول الصواب (المرضيّ) ؟

إنه كلام ليس مُدْرجاً في نطاق ما يعلمه البشر، حتى وإن كان هذا البشرُ محمداً ﷺ ، وشاهد ذلك قوله في بقية الحديث السابق:

(...فأقع ساجداً لربي، ثم يفتحُ الله عليَّ ويُلْهمني من مَحَامِده وحسن الثناءِ عليه شيئاً لم يفتحْه لأحد قبلي، ثم قال: يا محمد ارفع رأسك، سَلْ تُعْطَه، اشفع تشفَّع...)

يلهمه الله تعالى كلاماً لم يكن ليهتدي إليه، وهو القول الصواب المذكور في الآية، وصوابه أنه الغاية المرجّوة، وهي القبول والرضى عند الرحمن.

ومع حفظ خُصوصية المصطفى ﷺ ، فإنه للقول الصواب محّلاً عند الأنبياء والصدّيقين والشهداء والعلماء، فيتكلّمون إلى الله بما يلهمهم إياه سبحانه في شفاعاتهم التي تأتي بعد فتح باب الشفاعة بمحمد ﷺ

4- **الخاتمة (عطف على بدء)** .

بعد أن فصّل المولى عز وجل النبأ الذي هم فيه مختلفون اختتم ذلك التفصيل بقوله :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ النبأ: ٢٩ ــ ٤٠

ذلك : اسم إشارة أشار به الله تعالى إلى يوم الفصل بكل ما ورد في شأنه من تفصيلات، والذي جاء بياناً للنبأ العظيم. وقد يلحظ أحدكم أنني ذكرت في البداية أن النبأ العظيم هو أن الله واحد لا شريك له، وأنه غير تلك الأوثان التي نصّبها المشركون آلهة من دون الله .

فما علاقة ما أثْبته هناك بما هو مذكور في هذا الموضع ؟

أشير ابتداء إلى أن خبر وحدانية الله غير منفصل عن خبر يوم الفصل، فقد تلازما كثيراً في كتاب الله بلفظ الإيمان بالله واليوم الآخر، لأنه لامعنى للإيمان بالله إن لم نعتقد أننا إليه راجعون، فالإيمان بالرجوع إليه (**يوم الفصل**) لابد أن يكون مترافقاً مع حقيقة أنه الإله الأوحد، فلا إله سواه، وأنه الخالق الذي خلق الإنسان، ويسَّرَ له كل أسباب الحياة.

اليوم الحق: هو يوم الفصل بما ذُكر فيه من تفصيلات، وصفه الله بالحق، الذي لا مريه فيه، ولا في وقوعه، وهذا الحق يترتّب عليه أن يستعدّ إلا نسان لاستقباله إن شاء، وهو قوله سبحانه:

﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ﴾ النبأ: ٣٩

المآب : المرجع ، من آب يؤوب بمعنى رجع، وقد جاءت الكلمة على وزن اسم المكان، وأراد به المولى عز وجل : عملاً صالحاُ يلقى به إلا نسانُ وجه ربه يوم القيامة. (**إلى ربه**) جار

ومجرور تقدم على متعلَّقة وأصله التأخير، أي: مآباً إلى ربه، ولكنه سبحانه قدّم الجار والمجرور، فأفاد بذلك اختصاص المآب (**العمل الصالح**) به سبحانه، ووجه هذا الاختصاص أن يكون العمل خالصاً لله. وفي هذا المعنى قال المولى عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾ العنكبوت: ٧

أي أنه سَيُمْضي جزاءه وفقاً لأحسن ما عملوه في الحياة الدنيا، ليكونوا بذلك من أصحاب الدرجات العلي في الجنة. ولبيان حدّ المآب المذكور في الآية نستعين بما رواه الشيخان في شأن أولئك النفر الثلاثة الذين ألجأهم المطر إلى الغار، فأتت صخرة عظيمة فسدّت باب الغار وعندما أيقنوا بالهلكة توسّل كل منهم بعملٍ ظن أنه كان مخلصاً فيه لله تعالى، فصدّق الله ظنّهم بانزياح الصخرة عن فم الغار شيئاً فشيئاً مع عمل كل واحدٍ منهم .

وفي شريعة المصطفى ﷺ ثراءٌ واسع في هذا الباب، لو أردنا استقصاء لاستغرق منا الأمر صفحاتٍ عديدة، وهو ما من شأنه أن ينأى بنا عن تآلف وتقارب أجزاء التفسير، إلا أنه لا يمنع من ذكر بعضٍ منها، فالصدقة الخفية مآب إلى الرحمن، وكذلك الدمعة الخفية في خشية الرحمن، والإطعام في يوم ذي مسبغة... إلى غير ذلك مما يزخر به كتاب الله وحديث عبده ورسوله ﷺ.

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ النبأ: ٤٠

عذاباً قريباً: هو العذاب الآخرة، ووُصِف بأنه قريب، لأن كلَّ ما هو آتٍ قريب كما قال أهل التفسير، وهم في ذلك لم يعتمدوا حدّ الدلالة اللغوية الموافقة لأبعاد الزمان والمكان في واقع الإنسان . أي أن أهل التفسير لم ينظروا إلى كلمة (**قريباً**) من منظور دلالة القرب في اللغة، إنما نظروا إليها من ذلك الوجه المذكور قبل قليل : كل آتٍ قريب، وهو وجه فيه نظر، لخروجه عن حدِّ الدلالتين اللغوية والبلاغة:

أولاً: الدلالة اللغوية.

القريب هو كل ما كان حدّه الزماني أو المكاني قريباً، والعذاب الموصوف في الآية بالقرب هو عذاب يوم القيامة، **فكيف يكون قريباً وقد مضى على الإنذار به ألف وأربعمائة عام ؟**

إذا نظرنا إليه بمقياس القرب والبعد في واقع الإنسان، فإنه لن يكون قريباً أبداً. ولكن الذي يتكلّم هو الله خالق السموات والأرض فكان وصف العذاب الكائن يوم الفصل بأنه قريب إشارة إلى أن الزمن الذي مضى على الإنذار به ليس شيئاً أمام ما مضى على خلق السموات والأرض، إذ إن الإنسان لم يتحقق له وجود إلا في الزمن القليل المتبقي من زمن الحياة الدنيا، وهذه النسبة في الزمن تستوجب أن يوصف ذلك العذاب بأنه قريب

ثانياً: الدلالة البلاغية:

نجد في القرآن الكريم أن الله تعالى قد يستخدم الفعل الماضي للدلالة على أمر سوف يحدث في المستقبل، ومن ذلك **قوله تعالى:**

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ النحل: ١

فالاستعجال لا يكون إلا لأمر لم يأت بعْدُ، ومع ذلك فقد عبّر عنه جل شانه في أول الآية بالفعل الماضي (**أتى**) وهو نسق بياني يتوجه إلى إقرار حقيقة مؤداها أن الوعد بمجيء أمر الله حق لا مراء فيه مثلما هي دلالة الفعل الماضي على أمر حدث وانقضى، فلا أحد يتردّد في الإيمان بوقوعه .

ووجه توافق هذا النسق البياني الوارد في كتاب الله مع دلالته : (**قريباً**) أنه حتى وإن كان بعيداً في زمنه، فإنه ليس ببعيد عن حتمية وقوعه، أي أنه أمر لا مناص من وقوعه .

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ النبأ: ٤٠

قال القرطبي:

لما قال: (**ويقول الكافر**) عُلم أنه أراد بالمرء المؤمن في قوله: (ينظر المرءُ). وهو قول أصاب كبد الحقيقة، إلا أن القرطبي ذكر مع هذا القول أقوالاً أخرى، وهي عادته المتبعة في تفسيره، إذ يجمع في موضع واحد كل ما وقف عليه من قول في تفسيره هذه الآية أو تلك .

فالمرء لا يتمنىّ ان يكون تراباً، لأنه إمّا أن يكون مسلماً قد غفر الله له ذنوبه، وسلّمه من عذاب النار، ليكون من أصحاب الجنة، وإمّا أن يكون مسلماً قد قضى الله بدخوله إلى النار، حتى إذا نال نصيبه منها أخرجه الله وجعله من أهل الجنة.

أمّا الكافر فيقول : (**يا ليتني كنت تراباً**) لأنه، علم أنه ليس له إلا النار. وكأنه وهو يتمنى أن يكون تراباً إنما كان يلتفت إلى البهائم التي جعلها الله تراباً بعد أن جرى القصاص فيما بينها، وهو قول رسول الله ﷺ :

(لَتُؤَدُّن الحقوقُ إلى أهْلِها يومَ القيامِة، حتى يُقاد للشاةِ الجلحاءِ من الشاة القرناء) رواه مسلم.

الخط البياني

وهو إدراج للآيات في خطٍّ يُظهِر من قريب ما بينها من ترابط :

التساؤل وموضوع التساؤل

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾

الوعد بالجواب

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

الجواب، وهو مايفضي إليه النظر فيما خلقه الله للإنسان في الأرض.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾
وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾
وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾
وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا
وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾
لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

يوم الفصل فيه مختلفون

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا
﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا

انفراج يوم الفصل عن مآلين:

1- مآلين الطاغين

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا
﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً
وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا
وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا

2- مآل المتقين

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾
وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن
رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ
لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا
يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

وصف ليوم الفصل الذي كانوا فيه مختلفين

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا
﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا
قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

الفَهْرس

البداية	2
سورة النبأ	3
النبأ العظيم	4
أولاً: الإطار العام	4
ثانياً: دلالة الاسم	6
ثالثاً: التفسير والبيان	7
1–مفتاح البيان	7
2– براهين ذلك النبأ	11
3– وماذا بعد ؟:	29
الأول : مشاهد قيام يوم الفصل	29
الثاني: ما بعد يوم الفصل	36
* مآل الطاغين	36
*مآل المتقين	45
4– الخاتمة (عطف على بدء)	55
الخط البياني	61-60